الدين والسياسة
فى مصر المعاصرة

الطبعة الأولى
١٤٢١هـ - ٢٠٠١م

© دار الشروق
أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى -
رابعة العدوية - مدينة نصر
ص . ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩
فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى: email: dar@shorouk, com.

د. محمـــد عفيـــفى

الدين والسياسة في مصر المعاصرة

"القمص سرجيوس"

دار الشروق

مقـــدمـة

لا أجد ما يمكن أن أصف به سعادتى عند الانتهاء من إعداد هذا الكتاب. لقد صاحبت سرجيوس أو صاحبنى هو لمدة تسع سنوات، هى عمر هذا البحث. ولا يعنى هذا أننى رأيته لمرة واحدة، إذ مات سرجيوس فى عام ١٩٦٤ وأنا ما أزال فى مرحلة الطفولة. لكن السنوات التسع «العجاف» كانت سنوات البحث عن سرجيوس. أخذتنى منه أحيانًا أعباء التدريس فى الجامعة، وهى «أعباء ثقيلة» تكاد تقتل روح الباحث فينا. وشغلنى عنه أحيانًا « أبحاث جامعية» ثقيلة الظل، ومغرقة فى الأكاديمية، لكنها ضرورية لما يطلقون عليها « الترقية». ولكنى أخيراً أشعر حقيقة بعودة الروح إلى الباحث مع الانتهاء من هذا الكتاب. وقد يحظى ما جاء فى الكتاب برضاء القارئ، ولماذا يرضى عنه؟ وقد لايحظى برضائه، ولما لا؟! المهم أن يثير الكتاب فى ذهن القارئ مجموعة الأسئلة التى حاولت أن أطرحها من خلال دراسة شخصية القمص سرجيوس.

ربما ألتمس العذر للقارئ إذا لم يعرف سريعًا من هو سرجيوس ؟ لقد طرحت هذا السؤال فى أثناء محاضراتى فى الجامعة على طلاب مرحلة الليسانس فى الدراسات التاريخية، وأيضًا على الفرقة الثانية فى كلية الإعلام، ولم أجد من إجابة. والأكثر من ذلك، أننى طرحت السؤال فى أثناء ندواتى فى الكنيسة القبطية على شباب الخدمة الكنسية، ومجموعة المشاركة الوطنية ولم تكن الإجابة بقدر ما انتظرت. وأحسست أن هناك شبه تعتيم مقصود أو غير مقصود على هذه الشخصية «رمز الوحدة الوطنية». وما أحوجنا الآن لهذه الوحدة وهذه الشخصية وهذه الدراسة.

وبالنسبة لى تعرفت على شخصية سرجيوس لأول مرة من خلال فيلم

«بين القصرين» حيث يعرض المخرج فى نهاية الفيلم بعض المشاهد عن ثورة ١٩١٩ ومن هذه المشاهد، يسترعى الانتباه هذا القس الذى يعتلى منبر المسجد خطيبا للوطنية، ورمزا للوحدة الوطنية فى لحظة نادرة ومضيئة فى سجل أيامنا المصرية.

وربما يتساءل البعض: وما الذى يشد طفلا صغيرا فى هذا المشهد. والإجابة ذات شجون. كانت نشأتى فى حى شبرا وهو حى المهاجرين من المسلمين والأقباط إلى القاهرة منذ أواخر القرن التاسع عشر وحتى النصف الثانى من القرن العشرين، من هنا اكتسب الحى طابعا خاصا فيما يتعلق بمسألة الوحدة الوطنية. ربما لا يدرك طبيعة ذلك إلا أهل شبرا أنفسهم. لن أتكلم عن ذكرياتى فى شبرا، فسيأتى ذلك فى حينه، ومن ناحية أخرى شاهدت فى بداية السبعينيات ظاهرة بدت وكأنها فريدة إذا رشح القمص بولس باسيلى نفسه عن دائرة شبرا ونجح فى الانتخابات، كما أعاد ترشيحه فى الانتخابات التالية ولكنه لم ينجح. وأتذكر مقولة البعض إن القمص بولس كان يسير على درب القمص سرجيوس الذى رشح نفسه من قبل عن دائرة شبرا فى عام ١٩٤٩. والغريب أن هذه السنوات أواخر الأربعينيات، وبداية السبعينيات كانت سنوات « فتن طائفية » على أية حال، هكذا تعود إلى مخيلتى من جديد صورة القمص سرجيوس.

وكبرت، وعندما بدأت اختيار موضوع الدكتوراه فى التاريخ، وجدتنى أدرس تاريخ الأقباط الحديث، ولم يكن هذا غريبا فى بابه، فكما قلت نشأت فى هذا الحى الذى لم تستنكف أمى أن تذهب بى عند مرضى وأنا صغير إلى كنيسة « سانت تريزا» لنضىء شمعة شفاعة فى الشفاء. وهذا المدرس المسيحى فى مدرسة شبرا الإعدادية الذى كان يخاطب غيره عند بدء الحديث بقوله « صلى على النبى» من باب التودد فى الحديث. ولا أزال أذكر عمى فرنك جرجس زميل والدى وجارنا فى شبرا ـ والذى أهدى لذكراه هذا الكتاب ـ حيث كان يتبادل مع أبى الزيارة والهدايا فى الأعياد. حتى عندما اشتد بهما المرض بعد سن المعاش، كان هذا الأمر تقليداً لابد منه. كما أذكر لعمى فرنك وأخيه فؤاد مساعدتهما لى فى أثناء إعداد الدكتوراه، فبفضلهما تعرفت على الأنبا بسنتى سكرتير البابا آنذاك، لأقابل البابا؛ لأحصل على تصريح بالاطلاع على الوثائق والمخطوطات القبطية، وهو الأمر الذى تشكك بعض الزملاء فى الجامعة فى حصولى عليه.

إنه هذا الحى العجيب الذى تأثرت بتقاليده وأساطيره أشد التأثر .

وعندما بدأت التخصص فى تاريخ الأقباط الحديث والمعاصر ، بدأت أيضا فى التعرف على شخصية القمص سرجيوس عن قرب . ووجدت ذكراه حية فى قلوب الكثيرين من أهالى شبرا والقللى . عندما تحدثت إلى المرحوم الدكتور سليمان نسيم ، سكب فيض ذكرياته مع سرجيوس ، فضلا عن بعض المادة التاريخية المكتوبة عنه . وحتى عندما تحدثت مع بعض العلمانيين مثل الدكتور مجدى يوسف روى لى ذكريات شبابه مع سرجيوس وخطبه فى كنيسة القللى ، وصرح لى بأن المفكر اليسارى الكبير غالى شكرى كان فى بداية حياته من تلاميذ سرجيوس وكان يقوم بتوزيع جريدته « المنارة المصرية» على المشتركين . كما يحاول القس المعارض إبراهيم عبد السيد تقمص شخصية سرجيوس ، ولكن شتان ما بين الشخصيتين ، فضلا عن تغير ظروف الزمان والمكان . وأفرد القمص بولس باسيلى ـ السابق الحديث عنه ـ فصلا فى مذكراته عن سرجيوس . وحتى من خارج شبرا مايزال سرجيوس يشغل ركنا فى ذاكرة الكبار .

أتذكر كيف لمعت عين الأنبا « المثقف» موسى عندما ذكرته بسرجيوس وكيف أعجب بنضاله الوطنى والإصلاحى فى شبابه ، ولكنه أخذ عليه بعض الشطحات فيما يتعلق بالعلاقة مع الكنيسة . ويعجب إبراهيم هلال زعيم جماعة الأمة القبطية ـ الشهيرة فى عام ١٩٥٤ ـ أشد الإعجاب بسرجيوس ، ويعلن تأثره به . حتى أن هلال هو الذى كتب المادة الخاصة بسرجيوس فى دائرة المعارف القبطية . وعندما مات سرجيوس فى عام ١٩٦٤ نعاه لطفى الخولى على صفحات الأهرام خطيبا لثورة ١٩١٩ .

ثرية هى حقّا سيرة حياة القمص سرجيوس ، عندما تقلب صفحاتها ستجد مواقف ومعارك مع البابوات الأقباط من كيرلس الخامس حتى كيرلس السادس ، ومع الزعامات والشخصيات التاريخية من سعد زغلول إلى النحاس ، حسن البنا ، النقراشى ، مكرم عبيد ، الملك فاروق ، محمد نجيب ، عبد الناصر . إنها سيرة تحطم الحائط الوهمى بين الدين والسياسة فى تاريخ مصر المعاصر .

* * *

الفصـل الأول

الدور الوطنى للقمص سرجيوس

مقـدمة فـى المنهج

إن أول تساؤل يتبادر إلى الذهن عند قراءة هذا الكتاب هو : لماذا دراسة القمص سرجيوس ؟ والإجابة السريعة لمثل هذا التساؤل قد تكون فى أهمية الدور الذى لعبه سرجيوس فى ثورة ١٩١٩ ؛ حتى لقبه البعض « بخطيب الثورة». ومع اعترافنا بأهمية قيمة الإجابة السابقة، فإنها فى الحقيقة لم تكن الدافع الرئيسى، أو على الأقل الوحيد عند التعرض بالدراسة لسيرة القمص سرجيوس، فواقع الأمر يبرز لنا عديداً من الدوافع وراء دراسة القمص سرجيوس، هذه الدوافع لها علاقة وثيقة بتطور مناهج البحث التاريخى فى الفترة القصيرة السابقة.

فمنذ فترة طويلة عرفت الدراسات التاريخية المصرية دراسة « السيرة» أو «الترجمة» للشخصية التاريخية، وشهدنا العديد من الدراسات المهمة فى هذا المجال، وكان ذلك انعكاساً لمسألة منهجية عريقة فى مجال البحث التاريخى العام، وهى دور « البطل» فى صناعة التاريخ. ولقد شهدت هذه المسألة جدلا عنيفًا بين مؤيد ومعارض، وصل أحيانًا إلى حد التطرف فى الأحكام، إما بتعظيم دور الفرد فى التاريخ، أو بإهماله كلية، تحت دعوى أن البطل ما هو إلا إفراز من الجماهير.

ومع تطور دراسة التاريخ الاجتماعى فى العقود الأخيرة، ظهر اتجاه جديد فى مجال الدراسات الخاصة بالسيرة التاريخية « الترجمة»، يولى اهتمامًا كبيراً بدراسة الشخصيات التاريخية « الثانوية» التى ظلت لفترة طويلة مهضومة الجانب من حيث الدراسة التاريخية، على الرغم من أنها أكثر التصاقًا بالجماهير من « البطل» أو

«الزعيم»، وهى فى الوقت نفسه تفهم الجماهير جيداً، وتجيد التعامل معها وتحريكها، لكن للأسف فإن الدراسات التاريخية لم تضع هذه الشخصيات فى مجال الضوء، حتى نستطيع فهم العملية التاريخية من منظور جديد لا يعتمد على التركيز على « الزعيم» فقط، أو «الجماهير» فقط، وإنما يهتم أيضًا بدراسة أهمية الشخصيات « الثانوية» فى صناعة التاريخ، من أجل اكتمال النظرة « الشاملة» للحدث التاريخى.

وتحاول دراستنا هذه التعرض لنقطة مهمة فى مجال التحليل التاريخى، وهى : ما هو الهامش الذى نعطيه لـ « المناخ التاريخى» وأثره فى العملية التاريخية وإبراز شخصيات تاريخية معينة ؟ وأيضًا ما هو الهامش الذى نعطيه لدور « الشخصية» فى صناعة التاريخ، والقدرات الخاصة لـ «الشخصية» على تفهم المناخ التاريخى والتعامل معه ؟ والأكثر أهمية فى رأينا هو كيفية استثمار « الشخصية التاريخية» للحظة المشاركة فى « الحدث التاريخى»، لتكون نقطة انطلاق لبناء « رمز تاريخى» لأمة أو لشعب ما. وهو ما تحقق بشكل كبير فى شخص القمص سرجيوس.

وننتقل الآن من التعميمات التاريخية إلى بعض المشاكل المنهجية الخاصة بالتاريخ المصرى المعاصر، والتى تتصل بشكل ما بدراسة الدور الذى لعبه القمص سرجيوس. ولعل من أهم هذه المشاكل دراسة دور « رجل الدين» فى السياسة المصرية. والأمثلة الحقيقية التى تتوافر لدينا فى هذا الشأن نادرة إلى حد ما، وكلها تقريبًا تتعلق بالجانب الإسلامى، لظروف تتعلق بعلاقة الدين والسياسة فى الإسلام، ليس هنا مجال الحديث عنها.. لكن هذه المسألة تصبح فى غاية التعقيد والحساسية عند دراستها على الجانب القبطى، وربما ينبع ذلك من اختلاف طبيعة العلاقة بين الدين والسياسة فى المسيحية عنها فى الإسلام، برغم بعض الاجتهادات الجريئة فى هذا الشأن، فيفسر البعض مقولة « ما لقيصر لقيصر، وما لله لله» أن مصدر القوة عند قيصر « المال، وسياسة الدهاء، والقدرة على البطش. ومصدر القوة عند الله : الروح القدس، وقدرة الشهادة للحق، والاستعداد للموت». وعلى ذلك.. فإن تورط الكنيسة أو رجل الدين فى السياسة يخرج الكنيسة عن هدفها الأسمى الدينى، ويخرجها من « السلطان الروحى» إلى

«السلطان الزمنى» فإذا تكلم رجل الدين بأمر الكنيسة ـ وكما « تمليه عليه فى الأمور الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية التى هى أصلا ليست من اختصاص الكنيسة ـ صار هو والكنيسة مسئولين أمام الدولة . لذلك يلزم الكنيسة ألاَّ تأمر رجل الدين أن يتكلم إلا فيما يختص بالشئون الكنسية ، و فى دائرة اختصاص المسيحية ، حتى لا تقف الكنيسة مسئولة أمام السلطان الزمنى ، لأنها لا تسأل قط إلا أمام المسيح روحيًا»(١) .

وهناك اجتهادات أخرى قد تبدو معاصرة جدًا ، ولكننا قد ندرك أهميتها فى تاريخ الفكر القبطى إذا أدركنا أنها صادرة عن البابا شنودة الثالث ، الذى يرى أن «الكلام فى السياسة ليس حرامًا ، ولكن الكلام شىء ، والعمل السياسى شىء آخر ، كذلك فالعمل السياسى شىء والعمل الوطنى شىء آخر»(٢) .

على أية حال ، فإن كافة الاجتهادات المسيحية فى علاقة الدين بالسياسة تحترم العمل الوطنى وتقدسه ، فحتى الأطروحات التقليدية ترى أن الوطن السمائى لا يلغى وجود الأوطان ، فالمسيح نفسه قيل عنه «وخرج من هناك وجاء إلى وطنه وتبعه تلاميذه» (٣) .

وبرغم أهمية الاجتهادات السابقة فى تاريخ الفكر القبطى والمجتمع ، فإن القمص سرجيوس ـ كما سنرى ـ يقدم لنا نموذجًا مغايرًا ، أكثر حيوية ولكنه أكثر راديكالية أيضًا .

ومن ناحية أخرى يقدم لنا نموذج القمص سرجيوس إشكالية مهمة فى دراسة التاريخ السياسى لمصر المعاصرة ، إذ إنه من الصعب دراسة الدور السياسى لشخصية تاريخية ليس لها انتماء حزبى فى أثناء الفترة الليبرالية التى عاشتها مصر بين عامى ١٩٢٣ـ١٩٥٢ . أضف إلى ذلك أنها شخصية تنتمى إلى الأقلية الدينية التى تتهم دائمًا بالسلبية السياسية حتى فى العصر الليبرالى ، وبصفة خاصة فى أواخره . كذلك يحيط بمحاولة دراسة وتتبع الدور السياسى للقمص سرجيوس فى العهد

(١) الأب متى المسكين : مقالات بين السياسة والدين ، دير الأنبا مقار ، ١٩٨٠ ، ص٣٣ .
(٢) غالى شكرى ، الأقباط فى وطن متغير ، القاهرة ، ١٩٩٠ ، ص١٠٥ .
(٣) الأب متى المسكين : المرجع السابق ، ص٢٩ .

الثورى ـ بعد عام ١٩٥٢ ـ عديد من المحاذير، أهمها ندرة الوثائق والمصادر الموثوق بها. ومن هنا كان الاعتماد على المصادر الشفوية التى يشوبها الكثير من الغموض، فضلا عن « تأميم» نظام يوليو للحياة السياسية.

وهناك مشكلة أخرى تتعلق بدراسة دور القمص سرجيوس، وهو الاتهام الذى وجهه البعض إلى سرجيوس بالعمل « الطائفى» فى فترة تالية على ثورة ١٩١٩. من هنا كانت الصعوبة فى التمييز بين « الوطنى» و «الطائفى». وهذه المصطلحات قد تبدو شديدة الوضوح عند البعض فى حين الحقيقة غير ذلك، فكما سنرى تبادلت كافة التيارات والشخصيات السياسية الاتهام بالطائفية، حتى تميع ما هو «وطنى» وما هو « طائفى».

وأخيراً تحاول دراستنا معالجة « الرمز» التاريخى بين الواقع والأسطورة، والحضور التاريخى لـ « الرمز» على الواقع المعاصر. وهو المثال الذى نراه الآن فى «استحضار» صورة سرجيوس فى العقل الجمعى المصرى كلما وقعت أحداث « فتنة طائفية» فى العقدين الأخيرين.

سرجيوس، النشأة وسنوات التكوين

إن من يتتبع نشأة سرجيوس وسنوات تكوينه سيواجه ببعض الحقائق والصعوبات التى كثيراً ما تحد من رغبة الباحث النازعة إلى التحليل، أكثر من مجرد سرد الوقائع، فنادراً ما تتوافر لدى المؤرخ معلومات مهمة ووافية حول الفترة الأولى للشخصية التاريخية، فى حين تتراكم المعلومات بدءاً من الفترة التى يلمع فيها نجمه ويتحول إلى « شخصية تاريخية» ولا يهتم أحد بتسجيل الفترة السابقة.

وعلى ذلك فليس لدينا معلومات مهمة عن نشأة سرجيوس [1]، سوى أنه قد ولد فى جرجا فى الصعيد فى عام ١٨٨٣. وأما عن الأصول الاجتماعية لسرجيوس فهو ينتمى إلى أسرة توارثت سلك الكهنوت، فكان أبوه قسيسًا، وكذلك جده، من هنا كان طبيعيًا ـ كما يروى سرجيوس نفسه ـ أن يكون كاهنًا، وأن يتمرس على الخطابة والوعظ، ولا تتوافر لدينا أية معلومات عن سرجيوس من

(١) الاسم الأصلى للقمص سرجيوس هو: « ملطى سرجيوس عبدالملاك ».

عام ١٨٨٣ حتى عام ١٨٩٩ عندما يحدث التحول الكبير فى حياته برحيله إلى القاهرة للالتحاق بالمدرسة الأكليركية.

هكذا تبدو نشأة سرجيوس نشأة عادية لا تختلف عن كثير من أقرانه آنذاك، غير أننا لابد أن نرى جيداً هذه النشأة فى إطار ظروف العصر، فأولا كما نرى ولد سرجيوس عقب الاحتلال البريطانى لمصر فى عام ١٨٨٢ . من هنا، فقد شارك معاناة هذا الجيل الذى عاش تحت وطأة الاحتلال، ثم شاهد بدايات الحركة الوطنية ضد الاحتلال وقمعها قبل الحرب العالمية الأولى. كما أحس هذا الجيل جيداً بمعاناة مصر فى أثناء هذه الحرب، وبالتالى لم يكن غريبًا أن يقود هذا الجيل ثورة ١٩١٩ حين كان سعد زغلول منفيًا خارج البلاد، ففى عام ١٩١٩ كان سرجيوس يبلغ من العمر ستة وثلاثين عامًا. إنها ذروة الشباب والتوهج الوطنى، وهى تقريبًا نفس المرحلة العمرية للجيل الثانى من الوفد الذى قاد التحرك الشعبى والعمل السرى للثورة.

وعلى المستوى القبطى، كانت الحياة القبطية تدخل منعطفًا جديداً، نتيجة جهود البابا كيرلس الرابع «أبو الإصلاح» [١]، فضلا عن تحديات التبشير الكاثوليكى والبروتستانتى، ولقد تأثر القمص سرجيوس بهذه الأجواء، فقبل ذلك كانت ثقافة الكاهن القبطى متواضعة للغاية، وكان من يتولى الوعظ هم بعض الكهنة الذين يجمعون بين الوعظ وأعمال حرفية وزراعية أخرى، ليتقوتوا منها. ولم يكن هذا الوضع يتناسب مع الثقافة الراقية وفن الوعظ الذى يتمتع به المبشرون الأجانب، من هنا كان إنشاء المدرسة القبطية الإكليركية [٢] يعد تطوراً كبيراً فى الحياة القبطية.

وإذا انتقلنا من دراسة المناخ العام إلى دراسة طبيعة شخصية سرجيوس الخاصة، وأثرها فى تطور حياته، فإننا سنجد تميزاً خاصًا لسرجيوس فى هذا

---

(١) عن جهود البابا كيرلس الرابع، وبصفة خاصة فى الجانب التعليمى انظر : سليمان نسيم : الأقباط والتعليم فى مصر الحديثة، منشورات أسقفية الدراسات العليا والبحث العلمى، القاهرة د. ت ص٦٨ـ ٧٠.

(٢) حبيب جرجس : الإكليركية بين الماضى والحاضر، القاهرة ١٩٣٨.

الاتجاه، فقد وصفه البعض على سبيل المدح بأنه « نادر، ثائر، شاذ، لا يسير كما يسير الناس، شَبَّهَهُ بالبركان إن شئت، لكنه بركان متفجر، أو شبهه بالمحيط إن شئت، لكنه ليس بالمحيط الهادى . . . إنما هو شعلة متقدة من النور، وجذوة لا تخمد من النار»(١) .

والحق أن روح التمرد قد ظهرت مبكراً لدى سرجيوس، وهو معلم بالمدرسة الأكليركية، فقد قاد سرجيوس فى عام ١٩٠٢ تمرداً لطلاب الأكليركية من أجل إصلاح شئونها، وأحوال الطلاب بها، وبطبيعة الحال فإن أى تمرد يواجه بحدة وقمع، فما بالنا إذا كان التمرد داخل مؤسسة دينية؟! من هنا قامت البطريركية بمحاولة قمع هذا التمرد بالتهديد باستدعاء البوليس لإنهاء اعتصام الطلاب بالأكليركية، فلجأ الطلاب إلى أهم شخصية قبطية علمانية آنذاك بطرس باشا غالى، الذى تدخل لإنهاء هذا الخلاف(٢) .

ولا يهمنا هنا ـ ونحن بصدد دراسة الدور الوطنى لسرجيوس ـ التعرض بالدراسة لمسألة الإصلاح القبطى التى سيكون لها موضع آخر، إنما يعنينا هنا بيان مدى الطبيعة الخاصة التى تمتع بها سرجيوس مبكراً من قدرة على التمرد والرغبة فى الإصلاح . ومن هنا يمكننا إذا جمعنا بين المناخ العام من ناحية، والطبيعة الخاصة لسرجيوس من ناحية أخرى أن نفهم : لماذا بزغ نجم سرجيوس بعد ذلك ؟

بعد تخرج سرجيوس من المدرسة الأكليركية، تزوج (٣) فى عام ١٩٠٤ لكى تتم

---

(١) المنارة المصرية (مجلة) ١٤/٩/١٩٤٩ .

(٢) للتعرف على نشأة سرجيوس وسنوات تكوينه انظر : المصور(مجلة) ١٦/ ٤/ ١٩٥٤ حديث خاص مع القمص سرجيوس .

ـ وخليل نسيم خليل : القمص سرجيوس، القاهرة ١٩٦٥ . وذكر لنا الدكتور هلال زعيم جماعة الأمة القبطية أنه هو المؤلف الحقيقى للكتاب، وليس خليل نسيم، الذى لم يكن سوى مصور فوتوغرافى، وأنه قد وضع اسم خليل نسيم لكى يتهرب من الحظر المفروض عليه من جانب الدولة منذ حادث الأمة القبطية وإعفاء البابا يوساب فى عام ١٩٥٤، لقاء معه فى مكتبه بالقاهرة ديسمبر ـ ١٩٩٥ ـ إبريل ١٩٩٦ .

ـ وأيضاً القمص بولس باسيلى : ذكريات فى نصف قرن، القاهرة ١٩٩١، ص ١٤١، ١٥٥، وكان على صلة وثيقة بسرجيوس منذ الأربعينيات .

(٣) كان لسرجيوس خمسة أبناء وخمس بنات، وطنى (جريدة) ٦/ ٩/ ١٩٦٤ .

رسامته قسًا. وقام سرجيوس بالخدمة فى كل من الزقازيق، وسنورس، وملوى، إلى أن تم ترقيته إلى درجة «القمص» (١) فى عام ١٩٠٧، وفى عام ١٩١٢ انتقل سرجيوس للعمل بالسودان وكيلا للمطرانية القبطية هناك.

وفى السودان بدأ الدور الوطنى الحقيقى لسرجيوس، فقد وصل إلى هناك فى أعقاب عديد من الأحداث الطائفية التى شهدتها مصر آنذاك فى أعقاب مصرع بطرس غالى فى عام ١٩١٠، وانعقاد المؤتمرات الطائفية فى عام ١٩١١، وانتقل هذا التوتر إلى صفوف المصريين المقيمين فى السودان، ووفقًا لرواية سرجيوس: انقسم أعضاء النادى المصرى الذى كان يرمز إلى وحدة المصريين فى السودان، وخرج منه معظم أعضائه من الأقباط وشكلوا ناديًا آخر أطلقوا عليه اسم «المكتبة القبطية» كتأكيد على انفصام عرى عنصرى الأمة، وتمايز كل واحد عن الآخر.

ودعا أعضاء المكتبة القبطية القمص سرجيوس لإلقاء محاضرة دينية بها، إلا أن سرجيوس عندما شاهد بين الحاضرين بعض المسلمين عمد إلى تغيير موضوع المحاضرة وجعل عنوان محاضرته عيشوا بسلام، داعيًا إلى التآخى والمحبة بين الأقباط والمسلمين. كما يذكر سرجيوس أنه قد لعب مع بعض العلماء المصريين المسلمين فى السودان دورًا فى عودة الوئام والتآخى بين الأقباط والمسلمين فى السودان، حتى عبروا أزمة اغتيال بطرس غالى.

ولم يقتصر الدور الوطنى لسرجيوس فى السودان على هذا الحادث العارض، وإنما أصدر هناك مجلته «المنارة المرقسية» التى بث من خلالها آراءه وأفكاره. ويبدو أن نشاط سرجيوس قد أزعج السلطات البريطانية فى السودان، وبصفة خاصة بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى، حيث أمرت السلطات البريطانية سرجيوس بالرحيل عن السودان، التى غادرها فى ١٦ مايو ١٩١٥. وعاد سرجيوس إلى بلدته جرجا حيث ظل بلا عمل ولا راتب باستثناء بعض المساعدات التى كان يرسلها إليه أقباط السودان (٢).

---

(١) القمص أو الإيغومانس درجة أعلى من القس. عن ذلك انظر: ابن كبر: مصباح الظلمة فى إيضاح الخدمة جـ١ مكتبة الكاروز، القاهرة ص ٤٣٥.
(٢) المصور ١٦/ ٤/ ١٩٥٤. وأيضًا خليل نسيم: المرجع السابق ص ١٠.

الصعود إلى القمة « منبر الأزهر » ١٩١٩

وبمجيء عام ١٩١٩ يبدأ نجم سرجيوس الوطنى فى اللمعان، نظراً لطبيعة الدور الذى لعبه فى هذه الثورة، فهو كرجل دين قبطى، اعتبر بمشاركته في الثورة رمزاً للوحدة الوطنية فى مصر. وكان على وعى تام لطبيعة الدور التاريخى الذى يلعبه فى هذه الفترة، حيث أدرك مبكراً أن اشتراكه ككاهن مع شيوخ الأزهر فى العمل الوطنى يُعَدُّ دليلا على « وحدة المصريين وبراءة ثورتهم من تهمة الرجعية والتعصب». كما كان على وعى بأهمية الدور الذى يؤديه الأقباط فى هذه الثورة لتأكيد وحدة عنصرى الأمة واستجابة لـ « نداء الوطن » (١).

ومن الصعب الحديث عن دور سرجيوس فى ثورة ١٩١٩ دون الحديث عن الثورة ذاتها (٢)، ولكن ذلك سيخرجنا عن موضوعنا الأساسى، وهو تتبع دور سرجيوس، وبلوغه القمة فى خضم الثورة، من هنا ندخل إلى المعادلة الصعبة فى العملية التاريخية، وهى كيفية تناول دور الفرد فى صناعة التاريخ، وفى الوقت نفسه نجد أن الانغماس فى تتبع دور سرجيوس سيخرج لنا صورة مبالغ فيها، وكأن سرجيوس هو الظاهرة الأساسية فى هذه الثورة، أضف إلى ذلك ضرورة تناول دور سرجيوس فى إطار دور الأقباط بصفة عامة فى الثورة. إن هذا الرأى قد يبدو منطقيّاً للوهلة الأولى، لكنه فى الحقيقة يخفى فى داخله بعض التناقضات الأساسية، فكما تبين لنا من تطور الأحداث، لابد لنا أن نفرق بين أدوار « رجال السياسة» من الأقباط، وشخصيات ثانوية مثل سرجيوس والقمص بولس غبريال، ورجال الشارع القبطى. وهو ما سنحاول التركيز عليه هنا، أكثر من دراسة الثورة ذاتها، أو حتى فكرة الوحدة الوطنية.

---

(١) المذكرات الخطية للقمص سرجيوس ص ١٠ . وأيضاً المنارة ١١/ ٢/ ١٩٣٨.

(٢) عن ثورة ١٩١٩ بصفة عامة مع ذكر تفاصيل هذه الثورة، انظر: عبدالرحمن الرافعى: ثورة ١٩١٩، و ٢جـ، ط٢، القاهرة ١٩٥٥، وأيضاً عبد العظيم رمضان: تطور الحركة الوطنية فى مصر ١٩١٨-١٩٣٦، وعن دور الأقباط فى الثورة انظر الدراسة المهمة: طارق البشرى: المسلمون والأقباط فى إطار الجماعة الوطنية، القاهرة، ١٩٨٠، وبصفة خاصة الفصل الخاص بثورة ١٩١٩ ص ١٣٣-١٦٣ وأيضاً دراسة:

CARTER, B.L, THE COPTES IN EGYPTIAN POLITICS, CROOM HELN, LONDON_ 1986, P 58-71.

فعلى الرغم من وعى سرجيوس بالدور التاريخى الذى يلعبه فى ثورة ١٩١٩ ، فإنه يبدو أن انخراط سرجيوس فى الثورة قد جاء بعفوية وتلقائية إلى حد كبير ، ويأتى ذلك على العكس من موقف « زعماء» الأقباط ، الذين لم ينخرطوا فى الثورة إلا بعد عديد من الترتيبات ، فقد هالهم فى بداية الأمر أن يتكون الوفد[١] - بزعامة سعد زغلول - دون أن يتضمن فى عضويته شخصية قبطية . من هنا عقد زعماء الأقباط اجتماعًا لهم فى نادى رمسيس القبطى للتشاور فى الأمر ، وانتهى رأيهم إلى ضرورة إرسال وفد منهم لمقابلة سعد زغلول وسؤاله عن وضع الأقباط فى الوفد ودورهم فى الحركة الوطنية ، ثم مصيرهم بعد ذلك ، مقارنة بالمسلمين . وكان رد زغلول بضم بعض كبار الشخصيات القبطية إلى عضويته مع إصداره لتصريحه الشهير عن وضع الأقباط بعد الاستقلال « بعد الاستقلال يكون شأنهم شأننا ، لا فرق بين أحد منا إلا فى الكفاءة الشخصية» ، وتم إثبات ذلك ضمن محاضر الوفد[٢] .

وعلى العكس من هذه الحركة المنظمة - من ساسة محترفين - ذات الأهداف المزدوجة الوطنية والقبطية ، جاء انخراط سرجيوس فى أحداث الثورة بصفة تلقائية وعفوية ، إذ يروى سرجيوس قصة انخراطه فى الثورة قائلا : « ظلت حياتى موزعة بين الدراسة والوعظ والعبادة وحتى أحد أيام سنة ١٩١٩ ، وكنت قابعًا فى بيتى عندما سمعت ضجيجًا وصخبًا فى الشارع ، ولما تبينته وجدته مظاهرة من الشباب تهتف (يحيا سعد ، يحيا الاستقلال) ، ولما سألت عن السبب قيل لى : إن المستعمرين قد اعتقلوا سعداً الذى يطالب بالاستقلال التام ، وهنا تدفقت الدماء الحارة إلى رأسى ، وكأنما براكين الدنيا كلها قد تفجرت فى نفسى ، فأسرعت إلى الشارع وانضممتُ للمتظاهرين ، وسرنا نهتف ونصيح» [٣] .

ويهمنا هنا تحليل النص السابق ، لكى نرى طبيعة الدور الذى لعبه سرجيوس .

---

(١) سميرة بحر : الأقباط فى الحياة السياسية المصرية ، ط٢ ، القاهرة ١٩٨٤ ، ص ٧٤، ٧٥ وأيضًا مصطفى الفقى : الأقباط فى السياسة المصرية ، مكرم عبيد ودوره فى الحركة الوطنية ، ط٢ ، القاهرة ١٩٨٨ ، ص ٦٠ ، ٦١ .

(٢) طارق البشرى ، المرجع السابق ص ١٤٨ .

(٣) المصور ١٦/ ٤/ ١٩٥٤ حديث خاص مع القمص سرجيوس .

وقد يبدو موقف سرجيوس هنا عفويًا وتلقائيًا وحماسيًا إلى حد ما، ولكنه لا يمكن أن يقضى بنا إلى القول باندفاع سرجيوس وعاطفيته، ففى الحقيقة من يدرك طبيعة شخصية سرجيوس، يعلم أن هذا الموقف يتفق تمامًا مع طبيعة سرجيوس : « شعلة متقدة من النور، وجذوتها لا تخمد من النار»[1].

من هنا كانت بداية تحرك سرجيوس فى أحداث ثورة ١٩١٩ بداية طبيعية مثل اشتراك الآلاف من عامة المصريين، تحركهم عواطفهم الوطنية وحالة السخط على الاحتلال البريطانى، ولا يمكن أن ننكر حالة الهياج التى انتشرت فى جموع المصريين بعد اعتقال سعد الذى تحول إلى « رمز» الأمة فى جهادها الوطنى.

هكذا تحركت روح سرجيوس الثائرة لتجد نفسها فى خضم أتُون الثورة، ولم يتحرك سرجيوس هنا كأحد الساسة الزعماء « الأقباط»وإنما مثل شباب جيله الذى آمن بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، بضرورة تنظيم العلاقة بين مصر وبريطانيا وصولا إلى الاستقلال، من هنا إذا وصفنا خروج آلاف الشباب من المصريين بعد اعتقال سعد ـ فى مظاهرات عارمة بـ « التلقائية» فإن هذه التلقائية ليست منقطعة الصلة بنمو الشعور الوطنى، وظهوره فى مسألة جمع التوكيلات الشعبية ـ قبل اعتقال سعد ـ للوفد لمفاوضة بريطانيا. من هنا. . فالتلقائية فى « الخروج» والتى يشترك فيها سرجيوس كانت لها دوافعها الكامنة فى العقل الجمعى المصرى، ومن ناحية أخرى. . فإن رابطة الجامعة الوطنية التى تميزت بها ثورة ١٩١٩ قد أدت دورها فى فاعلية الإسهام القبطى فى الثورة.

وإذا عدنا مرة أخرى إلى تتبع الدور الذى لعبه سرجيوس فى الثورة، فسيسترعى انتباهنا ما قام به سرجيوس فى المسيرة الوطنية التى توجهت إلى الأزهر الشريف، حيث اعتلى سرجيوس منبر الأزهر خطيبًا وداعيًا إلى الثورة، فكان ذلك ظاهرة جديرة بالبقاء فى ذاكرة الأمة حتى الآن[2].

---

(١) المنارة ١٤/ ٩/ ١٩٤٩.

(٢) أنشد البعض تخليدًا لذلك :

فى الأزهر ارتفع الصليب مع الهلال	بفضل دعوة سرجيوس
تحيا البلاد وشعبها ومليكها	تحيا المشايخ والقسوس

(المنارة ٣٠/ ١١/ ١٩٤٩)

واستمر سرجيوس على ذلك وخَطَبَ فى عديد من الجوامع والكنائس، كما ترأس سرجيوس المظاهرات، لاسيما فى الميادين العامة، مثل ميدان الأوبرا، الذى كانت تتجمع فيه العديد من المظاهرات، وفى الحقيقة لم يكن سرجيوس هو الكاهن القبطى الوحيد الذى تزعم المظاهرات وخطب فى الجماهير فى الكنائس والمساجد، إذ انضم إلى الثورة بعض رجال الدين الآخرين، لعل أشهرهم القمص بولس غبريال (١).

الأسلوب الخطابى عند سرجيوس

تميز سرجيوس فى خطابته للجماهير بأسلوب سلس ولاذع وساخر ومثير للجماهير فى نفس الوقت، وربما ساعده على ذلك قربه الدائم من الناس عن طريق الوعظ والإرشاد، لاسيما للفئات المتوسطة والفقيرة، وفى رأينا أن من الضرورى التعرض لأسلوب الخطابة عند سرجيوس، لأنه فى الحقيقة أحد أهم أسرار تحليل ظاهرة «سرجيوس» فى الحركة الوطنية.

وهناك عديد من الأمثلة عن الخطابات المثيرة التى كان يلقيها سرجيوس على الجماهير، فمن على منبر الأزهر وجه سرجيوس خطابًا ساخراً إلى الجماهير، محرضًا على الثورة قائلا: «كنتُ أسير يومًا فى شارع كلوت بك، فوجدت أطفالا يلعبون أمام منزلهم، فتحدثتُ معهم حديثًا، قالوا لى بعده: (إن أمنا فى المنزل، وهناك بعض الجنود يعتدون عليها)؛ فعجبتُ لأمرهم وسألتهم: كيف ذلك؟

قالوا: ماذا نفعل؟، فصعدتُ إلى المنزل، فوجدت امرأة يعتدى عليها الجنود الإنجليز. أتدرون من هم هؤلاء الأطفال؟ ومن هى هذه الأم؟ فقال الجمهور: لا، فأجاب سرجيوس: (هم فئة الموظفين، والأم هى مصر). عندئذ ثار الموظفون أمام سرجيوس، فقال لهم: «أظهروا شعوركم حيالَ أُمكم مصر».

---

(١) القمص بولس غبريال ـ ولد فى القاهرة فى أكتوبر ١٨٧٨ وكان أبوه كاهنًا، وتخرج من المدرسة الأكليركية ـ مثل سرجيوس ـ ولعب دوراً مهمًا فى التعليم القبطى، كان كاهنًا للكنيسة العذراء بحارة الروم فى القاهرة، وشارك بالخطابة فى أثناء ثورة ١٩١٩ فى عديد من المساجد والكنائس محرضًا على الثورة، شارك بعد ذلك فى الهيئة الوفدية والرابطة الشرقية، والمحافل الماسونية، غير أن ديناميكية سرجيوس وملكاته الخاصة قد خطفت منه الأضواء.

انظر: إيريس حبيب المصرى: قصة الكنيسة القبطية، الكتاب الخامس، القاهرة، ص ١٠٤.

ويوضح النص السابق مدى القدرة الفائقة لسرجيوس فى استخدام الأسلوب اللاذع فى إثارة الجماهير، ومدى تواصله مع الجماهير وفهمه لتقاليدهم واستخدامه لعامل الشرف والأمومة فى إعطاء شحنة عاطفية للجماهير، موجهة ضد الاحتلال.

كما تميز سرجيوس بروح الدعابة والفكاهة وانعكس ذلك على خطابه الجماهيرى، حيث أدرك سرجيوس بذكاء مدى ولع الجماهير المصرية بهذا الأسلوب، وهو الأسلوب الذى استخدمه الكثير من الزعماء فى مخاطبة الشعب المصرى، ففى إحدى المرات وقف سرجيوس على رأس مظاهرة كبرى فى ميدان الأوبرا، حيث طلبت منه الجماهير الحديث، لكن سرجيوس فاجأ الجميع بهتاف غريب إذ هتف قائلا: «يحيا الإنجليز» وأحدث هذا الهتاف صدمة شديدة فى صفوف الجماهير، وزاد سرجيوس من حيرة الجماهير عندما أصر على ألاّ يبدأ حديثه، إلا بعد أن تهتف الجماهير معه «يحيا الإنجليز» وبطبيعة الحال.. فإن هذا الهتاف لا يتفق مع المناخ السائد فى أثناء الثورة، وبرغم دهشة الجماهير فقد أصر سرجيوس على ذلك، وبالفعل لم تجد الجماهير بُدًا من الهتاف: «يحيا الإنجليز»، وهنا بدأ سرجيوس حديثه قائلا: «نعم يحيا الإنجليز، لأنهم استطاعوا بظلمهم واستبدادهم وفجاجتهم أن يجعلوا منا هذه الكتلة الموحدة المقدسة الملتهبة». وهنا غرقت الجماهير فى عاصفة من الضحك، وهتف الجميع بحياة سعد والوطن.

إن المتأمل للنص السابق يدرك مدى ما تمتع به سرجيوس من قدرات خارقة فى التعامل مع الجماهير والنفاذ إلى قلوبهم وعقولهم، واستدعاء مشاعر الفكاهة والإثارة والغضب فى آن واحد، ومدى قُدرة سرجيوس على سلب عقول الجماهير، بدليل أنه جعلها تهتف على الرغم منها بحياة الإنجليز، ليصبح عقله بعد ذلك هو المحرك لهذه الجماهير فى ثورتها ضد الإنجليز.

ولم يقتصر استخدام سرجيوس لأسلوبه الشهير الجامع بين الدعابة والسخرية على مخاطبة الجماهير، وإنما استخدمه أيضًا مع كبار الزعماء، حتى مع سعد زغلول نفسه، ففى السرادق الذى أُعدَ لتكريم سعد زغلول بعد عودته من المنفى هتفت الجماهير باسم سرجيوس ليلقى كَلمة ترحيب بعودة سعد من المنفى. فوقف سعد زغلول داعيًا سرجيوس لإلقاء كلمته قائلا: «فليُسمعنا خطيب الثورة

كلمته»، وعلى عكس كل التوقعات وقف سرجيوس مخاطبًا سعدًا قائلا : والله إنك لمجنون يا سعد ! »، وبهت الجميع، بما فيهم سعد من هذه البداية الغريبة، إلا أن سرجيوس سرعان ما استطرد قائلا : « والله إنك لمجنون يا سعد، تقدم على دولة عظمى خرجَتْ منتصرة من حرب عظمى، وتملك كل شيء، ولا تملك أنت شيئًا، ثم تنتصر عليهم أنت، والله إنك لمجنون يا سعد ! »، فوقف سعد ضاحكًا، وقائلا : « مجنون والله أنت يا سرجيوس ! ».

فضجَّ السرادق كله بالهتاف والتصفيق[1]. والحق أن القدرة الخطابية الفذة هي أهم العوامل التي صنعت مجد سرجيوس، ووضعته كواحد من أهم رموز الحركة الوطنية المصرية.

الاعتقال والنفي إلى رفح

استمر سرجيوس في نشاطه الثوري إلى أن أصدرت السلطات البريطانية أوامرها باعتقال سرجيوس في إبريل ١٩١٩، و في البداية تم إلقاء القبض عليه في منزله بواسطة البوليس حيث اقتيد إلى قسم الأزبكية، ووفقًا لروايته انتقل إلى «المحافظة»، ومن هناك إلى ثكنات الجيش الإنجليزي في قصر النيل، حيث بات فيها ليلة واحدة، وفي اليوم التالي قدم سرجيوس للتحقيق أمام ضابط إنجليزي كبير، حيث صدر بعد ذلك الأمر بنفي سرجيوس إلى رفح [2].

وأحدث نبأ اعتقال ونفي سرجيوس عديدًا من ردود الأفعال، لعل أهمها امتعاض الكنيسة القبطية من إلقاء القبض على أحد رجالها، حيث أرسلت الكنيسة رسالة إلى السلطان أحمد فؤاد، احتجاجًا على اعتقال ونفي السلطات البريطانية للقمص سرجيوس. واستندت الكنيسة في احتجاجها إلى أن الاعتقال جاء على

---

(١) عن الخطب الوطنية لسرجيوس انظر : المذكرات الخطية لسرجيوس، صورة لعدة ورقات من هذه المذكرات، قدمها لنا الدكتور سليمان نسيم أستاذ التربية القبطية والصديق القديم لسرجيوس، وأيضًا المذكرات المنشورة في كل من مجلة المصور، ومجلة المنارة في عام ١٩٣٦، وأيضًا مجلة المصور ١٦ إبريل ١٩٥٤ حديث خاص مع القمص سرجيوس، وأيضًا القمص بولس باسيلي، المصدر السابق ص ١٤٦-١٤٧.

(٢) المنارة ١٧/ ٤/ ١٩٣٦ مذكرات القمص سرجيوس عن الحركة الوطنية.

غير المألوف فى معاملة رجال الدين، ففى مثل هذه الأحوال يجب إخبار الكنيسة أولا عن الأسباب التى تدعو إلى هذا الاعتقال «حسب القوانين المرعية والامتيازات الخاصة برجال الدين»، كما أشارت الكنيسة إلى أنها السلطة الوحيدة التى يحق لها مساءلة رجال الدين، واعترضت الكنيسة على تطبيق الأحكام العرفية ـ التى كانت سائدة آنذاك ـ على رجال الدين، كما طلبت من السلطان أحمد فؤاد التدخل لدى السلطات البريطانية للإفراج عن القمص سرجيوس، وتسليمه للكنيسة لتنظر فى أمره، إذا كان حقًا قد أخطأ (١).

ويهمنا هنا تحليل موقف الكنيسة السابق فى الدفاع عن القمص سرجيوس، هل هو موقف وطنى، أم موقف طائفى؟ فقد يتبادر إلى الذهن من خلال صيغة الرسالة السابقة أن الكنيسة هنا تدافع عن «حرمة الكهنوت» وليس «الوطن»، وبالتالى يُفسر الموقف تفسيراً طائفيًا. وفى رأينا أنه من الصعب الفصل بين ما هو «طائفى»، وما هو «وطنى»، ونقصد هنا المعنى الحسن لكلمة طائفة، فالوطن فى الحقيقة مجموعة من الطوائف التى يربط بينها رباط المواطنة، و«الطائفة القبطية» ـ وهو مصطلح متداول طيلة النصف الأول من القرن العشرين ـ لم يكن يحمل المعنى السيئ الجديد الذى اكتسبه فى الفترة الأخيرة، ومن الطبيعى أن تدافع الكنيسة عن رجال دينها فى خضم الثورة، وأن تستفيد من وضعها كمؤسسة دينية فى التشهير بالاحتلال الإنجليزى، وتعرضه لرجال الدين، فدفاعها عن رجال الدين الأقباط هو فى الوقت ذاته دفاع عن الوطن، ويعزز ذلك الموقف الوطنى الذى وقفته الكنيسة القبطية يوم الجمعة ٢١ نوفمبر ١٩١٩ فى أعقاب تولى يوسف وهبة باشا ـ قبطى ـ الوزارة. فقد تم عقد اجتماع كبير فى البطريركية برئاسة وكيل البطريركية القمص باسيليوس، وعديد من كبار الشخصيات القبطية الكهنوتية والعلمانية، احتجاجًا على موقف يوسف وهبة باشا وقبوله الوزارة فى ظل السلطة الإنجليزية. وأرسل هؤلاء برقية احتجاج إلى يوسف وهبة مطالبين إياه بعدم قبول الوزارة احترامًا لـ «الوطن المقدس» و «ذكرى أجدادنا العظام». والجدير بالذكر أن القمص سرجيوس كان أحد

---

(١) رسالة من بطريرك الأقباط الأرثوذكس إلى السلطان فؤاد فى ٢٧/ ٤/ ١٩١٩ . دار الوثائق القومية، محافظ عابدين محفظة ٥٤١ التماسات .

المشاركين فى هذا الاجتماع (١)، ففى اللحظات التاريخية الأساسية فى تاريخ مصر يكون « الطائفى فى خدمة» الوطن ؛ فالمجتمع هو الذى يفرز التناغم أو التضاد بين هذه المصطلحات والمعانى.

وأرسل سرجيوس نفسه من منفاه فى رفح رسالة احتجاج على اعتقاله إلى الجنرال اللنبى المندوب السامى البريطانى فى مصر، حيث رأى سرجيوس أن ما قامت به السلطات البريطانية من اعتقاله مخالف للتقاليد المتعارف عليها، حيث نصت الفرمانات العثمانية أن القسيس الذى يقترف ما يستوجب السجن، يسجن بالدار البطريكية. وسخر سرجيوس بأسلوبه المعتاد من الموقف البريطانى قائلا: «إذا كان هذا منحة الأتراك للأقباط، فهل تعتقل دولة الإنجليز رجال الدين المسيحيين، وهى التى تتباهى بالمحافظة على التقاليد وعدم التعرض للأديان».

وشرح سرجيوس فى رسالته المعاملة السيئة التى لاقاها، سواء فى ثكنات قصر النيل أو فى معتقل رفح. ولإيمان سرجيوس بدور رجل الدين فى الحركة الوطنية، أشار سرجيوس إلى أن ما قام به فى الثورة لا يختلف عَمَّا فعله قسُسُ الكنيسة الإنجليزية حينما لازموا خطوط القتال لإثارة الحماسة فى نفوس الجنود طيلة سنوات الحرب (٢).

لكن كل هذه المحاولات ـ سواء من جانب الكنيسة القبطية، أم من جانب سرجيوس ـ لم تفلح فى دفع السلطات البريطانية إلى الإفراج عن سرجيوس، واستمر منفيًا فى رفح لمدة تقارب الثمانين يومًا، حيث كان يرافقه هناك العديد من زعماء الحركة الوطنية، سواء من الساسة، مثل: النقراشى، أو العلماء مثل: الشيخ مصطفى القاياتى.

وقد روى سرجيوس فى مذكراته تفاصيل إقامته فى معتقل رفح، وكيف قضى هذه المدة فى معسكر محاط بالأسلاك الشائكة، ومنع سرجيوس، هو ورفاقه من الاقتراب من سور المعسكر، وإلا تعرض لنيران الجنود. وعلى الرغم من الحالة النفسية السيئة التى عاشها سرجيوس فى المنفى، فإنه لم يتخل عن روحه الثورية،

(١) عبدالرحمن الرافعى: ص ١٠٥، ١٠٦.
(٢) المنارة ١٠/ ٤/ ١٩٣٦، مذكرات القمص سرجيوس.

وعن روح الدعـابة لديه ، إذ يقص علينا أخبـار مناقـشـات حـادة بينه وبين الجنود والضباط الإنجليز ، وبراعته فى استخدام أسلوب الدعابة والسخرية فى مواجهة الضباط الإنجليز . ففى إحدى المرات أشهر الضابط الإنجليزى مسدسه فى وجه سرجيوس ورفاقه المعتقلين مهدداً إياهم بإطلاق النار عليهم إذا لم يمتثلوا لأوامره ويحملوا حقائبهم ، فما كان من سرجيوس إلا أن انبطح أرضًا متحديًا أوامر الضابط مردداً فى تحدٍّ وسخرية « إننا نعتبر ما فى غدارتك ملبسًا حلواً فى أفواهنا ، نفضله على امتهاننا ، وخير لنا أن نموت برصاصك وفينا بقية من شمم ، اضرب ونحن نيام»(١) .

إن هذه الروايات قد يرى فيها البعض عدم أهمية تاريخية ، ولا تستحق التسجيل ، ولكننا نرى أنها غاية فى الأهمية ، لأنها من ناحية تعبر عن طبيعة «خطاب» الشخصيات التاريخية الوسيطة ، التى هى أكثر التصاقًا وتعبيراً عن الجماهير ، ومن ناحية ثانية تقدم لنا نموذجًا نادراً لرجل الدين الذى لا يقل وطنية و«ثورية» عن الساسة المحترفين ، وأخيراً تعبر هذه الروايات عن صلابة سرجيوس حتى فى المنفى . وليس هناك صيغة مبالغة من جانب سرجيوس فى رواياته عن المنفى ، لأن الأحداث التالية ستؤكد لنا مدى صلابة سرجيوس ، بل وفى أحيان أخرى «حدته» ، أو حتى « تهوره» فى خلافاته السياسية .

نهاية الثورة وبداية الإحباط

ويخفت الدور الوطنى الذى يلعبه سرجيوس بعد ذلك ، نتيجة التغيُّرات على الحياة السياسية المصرية بعد ثورة ١٩١٩ ، وبصفة خاصة بعد دستور ١٩٢٣ ، ونقصد بذلك تكوين الأحزاب المصرية والتنافس الحزبى بين الأحزاب وصولا للحكم ، فضلا عن الانقلابات الدستورية العديدة التى عانت منها مصر آنذاك .

وفى رأينا أن سرجيوس لم يكن له دور يؤديه فى الساحة السياسية الجديدة ، ويرجع ذلك فى المقام الأول إلى كون سرجيوس رجل دين ، وبالتالى فمن الصعب

(١) مذكرات سرجيوس المخطوطة ص ٣.

عليه الانضمام لأحد الأحزاب السياسية، والانخراط فى فعاليته، فعلى الرغم من نشاطه الوطنى السابق، فإنه فى النهاية أحد رجال الدين، بل أحد رجال الدين لطائفة الأقلية.

يضاف إلى ذلك شخصية سرجيوس التى تتسم بقدر كبير من الاستقلالية وروح الثورة وعدم الانقياد للآخرين. من هنا كان من الصعب على سرجيوس أن يتكون لديه «الالتزام الحزبى» الذى يُعَد أهم سمات العمل الحزبى، وفى الواقع كان سرجيوس يعتبر نفسه «زعيمًا»، من هنا يصعب على سرجيوس أن ينطوى تحت لواء زعيم آخر، حتى لو كان هذا الزعيم هو سعد زغلول نفسه.

وأهم من ذلك أن القضية الأساسية التى اعتبرها سرجيوس شغله الشاغل، وهى الوحدة الوطنية - الباب الذى دخل منه إلى ساحة العمل الوطنى - لم تعد بعد ثورة ١٩١٩ القضية الوطنية الأولى، إذ تراجعت مكانة هذه المسألة ثم خفت ضَوؤُهَا، وتوارت وراء عديد من القضايا الوطنية الأخرى، مثل الاستقلال التام، والجلاء، والمفاوضات المصرية البريطانية، ومشكلة دستور ١٩٢٣، والانقلاب عليه بدستور ١٩٣٠، ثم المطلب الوطنى بالعودة إلى دستور ١٩٢٣، يضاف إلى ذلك الصراعات الحزبية، فضلا عن علاقات الصراع والوفاق بين أعمدة السياسة المصرية: الإنجليز - القصر - الوفد.

فى ظل هذه المتغيرات السياسية العديدة لم يجد سرجيوس مكانًا له على الساحة السياسية المصرية، ولما كان من الصعب عليه أن يبقى بلا دور، وكانت الطائفة القبطية تعانى آنذاك من عديد من المشاكل الداخلية، والصراع المزمن بين الكنيسة والمجلس الملِّى، والإصلاح القبطى يمر بأصعب مراحله، انكفأ سرجيوس على المشاكل الداخلية للطائفة، وامتصت هذه المشاكل معظم جهوده واهتماماته. وتعتبر المقدمة التى كتبها سرجيوس لمذكراته عن ثورة ١٩١٩ خير معبر عن حالة الإحباط الوطنى التى وصل إليها سرجيوس، إذ يذكر سرجيوس فى عبارات من الألم والسخرية: «أحس بأن ذكريات الحركة الوطنية قد خمدت فى نفسى كما تخمد النيران إذا ما تُركت وشأنها، فأوشكت أن تنطفىء جمرتها الملتهبة». ويصل به الإحباط وروح السخرية حدها عندما يتساءل: هل ثورة ١٩١٩ هى« فيلم التمثيل

الذى مثله المصريون سنة ١٩١٩»؟، كما يمكننا تفهم كل ذلك الشعور إذا طرحنا سؤالا منهجيًا حول متى تكتب الشخصية التاريخية « مذكراتها» ؟ ولماذا تكتبها ؟ وما هو الهدف من كتابتها ؟ .

فى الحقيقة كتب سرجيوس مذكراته عن ثورة ١٩١٩ فى عام ١٩٣٦، وهذا العام يدرك كل مطلع على تاريخ مصر أنه نقطة تحول فى تاريخها، إذ يجىء بعد أحداث عام ١٩٣٥ الذى شهد محاولة جديدة لإعادة روح الثورة (١)، وتكون الجبهة الوطنية من معظم الأحزاب المصرية للتفاوض مع بريطانيا بشأن « الاستقلال التام» وتمخض ذلك عن صدور معاهدة ١٩٣٦ التى تُعد نقطة تحول مهمة فى تاريخ مصر المعاصرة. أضف إلى ذلك تعقد السياسية الدولية وشبح الحرب العالمية الثانية الذى أعاد إلى الأذهان الحرب العالمية الأولى والتى جاءت ثورة ١٩١٩ فى أعقابها(٢). من هنا كانت مذكرات سرجيوس عن ثورة ١٩١٩(٣)والتى نشرها فى عام ١٩٣٦، تعبيراً عن الأزمة التى تمر بها مصر، مثلما كانت تعبيراً عن الأزمة التى يمر بها سرجيوس، نفسه، ومحاولة منه لاستعادة دوره الوطنى بعد انغماسه فى الهموم الطائفية.

سرجيوس فى مهب رياح السياسة المصرية

ودخل سرجيوس مرحلة جديدة فى نشاطه السياسى، اهتزت فيها خطواته مع اهتزاز وتخبط السياسة المصرية نفسها، إذ دخل سرجيوس فى عداء شديد مع الوفد وزعيمه النحاس ومكرم عبيد باعتباره رمز الوحدة الوطنية. حيث يرى الوفد نفسه العباءة التى تلتف حول الأمة المصرية، فى حين كان سرجيوس يعتبر نفسه « أول» من نادى باتحاد عنصرى الأمة(٤).

---

(١) ضياء الدين الريس: الدستور والاستقلال والثورة الوطنية١٩٣٥، جزآن، ط١، القاهرة ١٩٧٥.
(٢) عن الأزمة السياسية الدولية والمصرية آن ذاك انظر: يونان لبيب رزق: تاريخ الوزارات المصرية، القاهرة ١٩٧٥، ص ٣٧٩ عن وزارة على ماهر، وص ٣٨٣ عن وزارة النحاس ص ٣٨٣.
(٣) المصور والمنارة مايو ١٩٣٦.
(٤) المنارة ١١/ ٢/ ١٩٣٨.

ونكاية فى الوفد وقف سرجيوس إلى جانب « الهيئة السعدية» فى صراعها الدائب مع الوفد، وكان كل من النقراشى وماهر عند سرجيوس أفضل من النحاس[1]. كما دخل سرجيوس فى مجادلات عنيفة مع الإخوان المسلمين، إذ رأى فيهم السبب وراء تبدد روح «الوحدة الوطنية» التى خلقتها ثورة ١٩١٩، غير أن هذه المجادلات أخذت شكلا دينيًا أكثر منه سياسيًا، فسرجيوس فى المقام الأول رجل دين أدّى دورًا سياسيًا، والإخوان المسلمون جماعة دينية ذات أهداف سياسية، من هنا شهدت الساحة المصرية سلسلة من المجادلات الدينية العنيفة بين الاثنين، شجع عليها الصبغة الدينية التى اتسمت بها الحياة المصرية آنذاك، إذ شهدت فترة نهاية الثلاثينيات وبداية الأربعينيات ازدياد دور جماعات التبشير فى المجتمع المصرى، ومحاولات بعضها لتحويل المسلمين إلى المسيحية، وظاهرة اهتمام بعض كبار الكتّاب المصريين بالإسلاميات، وصاحب ذلك ازدياد الحمية الدينية عند بعض كبار المشايخ نتيجة ظهور كتابات تبشيرية تناهض الإسلام، فقام هؤلاء المشايخ بتصنيف العديد من المؤلفات فى نقد المسيحية، وللأسف انغمس القمص سرجيوس فى هذا الجدل العقيم، حيث نشر العديد من المقالات فى مجلته المنارة ردًا على نقد بعض العلماء للمسيحية، وقام بجمع هذه المقالات بعد ذلك فى كتب عديدة[2] أصبحت بمثابة المرجعية الآن لبعض غلاة الأقباط لاسيما فى المهجر. وأدى ذلك إلى إلباس سرجيوس ثوبًا طائفيًا، وساعد هو من حيث لا يدرى فى تأكيد ذلك، إذ قبل سرجيوس فى عام ١٩٣٥ من المجلس الملّى القبطى وظيفة «المرشد» للمسيحيين الراغبين فى التحول إلى الإسلام[3]، ولما كانت هذه الوظيفة ذات راتب ولما كانت فى نظر البعض تتعارض مع الذوق العام، وتتعارض

---

(١) الوفد المصرى ٩/ ٤/ ١٩٣٨.

(٢) القمص سرجيوس: رد القمص سرجيوس على الشيخ الطنيخى وآخرين، القاهرة ١٩٤٧.

ـ رد القمص سرجيوس على الشيخ العدوى حول التثليث والتوحيد، القاهرة ١٩٤٦.

ـ رد القمص سرجيوس على الشيخين الطنيخى والعدوى حول تجسد الله ولاهوت المسيح، القاهرة ١٩٤٧.

ـ رد القمص سرجيوس على المتنصر المهدى حول حقيقة صلب المسيح وموته، القاهرة ١٩٤٧.

ـ القمص سرجيوس: هل تنبأت التوراة أو الإنجيل عن محمد، القاهرة ١٩٤٧.

(٣) المنارة ٢٢/ ١/ ١٩٣٧.

مع ماضي سرجيوس الوطني، رسخ ذلك من الثوب الطائفي لسرجيوس، يضاف إلى ذلك اتهام مكرم عبيد لسرجيوس بأنه « قضى السنين في شتم المسلمين، والطعن في الإسلام بأقذر قلم وأفحش لسان» (١). من هنا لم يكن غريبًا أن تتصاعد حدة المجادلات الدينية والصحفية بين سرجيوس والإخوان المسلمين، حيث حملهم سرجيوس مسئولية اضطهاد الأقباط « كأن بلادنا المصرية لا تعيش على مياه النيل، بل على الأمطار، حتى إذا ما امتنعت فيها أمطار السماء استمطرت عيون المسيحيين لتروى ظمأ تلاميذ حسن البنا ومعتنقى مبادئ الإخوان المسلمين»(٢). ووصل الأمر إلى أن يقود حسن البنا بنفسه حمله عنيفة ضد سرجيوس بمقال شهير تحت عنوان «بالتى هى أحسن، إلى القمص سرجيوس»(٣)ويذكر سرجيوس أنه كان من أوائل مَنْ طالبَ الحكومة المصرية ـ منذ ظهور الإخوان ـ بضرورة التخلص منهم، حيث رأى فيهم خطرًا يهدد البلاد(٤).

وفى رأينا أن نزول سرجيوس إلى ميدان السياسة المصرية التى كانت تتجاذبها الأهواء بشدة آنذاك قد أدى به إلى بعض التخبط والتباس الوطنى بالطائفى، وتزايد لديه ذلك الشعور مع تصاعد التيار الإسلامى وإحساسه بأن هذا التيار إذا نجح لن يجد سرجيوس نفسه، أو حتى الأقباط مكانًا لهم فى مصر. وربما يعتبر ذلك هو التفسير الوحيد للسقطة الشديدة التى انزلق إليها سرجيوس فى عام ١٩٤٩ عندما كتب فى مجلته « آه أين أذهب أنا سرجيوس بوجهى، لأنىناديت وبح صوتى، طالبًا خروج الإنجليز من مصر ويتركوننا نحن القبط مرة أخرى تحت رحمة من لا يرحمنا ؟!، وماذا أقول لهم، وها نحن نتلقى نجدة ديننا وحريتنا على أيديهم، تكشفوا يا تلاميذ حسن البنا أقيموا الدليل على أنكم لا تصلحون لإدارة هذه البلاد، وأن الإنجليز ألزم لحفظ حضارتها وحريتها وسعادتها منكم» (٥). والحق أن هذه الفترة العصيبة التى سبقت ثورة ١٩٥٢ قد شهدت العديد من الظواهر الطارئة على

---

(١) الوفد المصرى ٩/ ٤/ ١٩٣٨.
(٢) المنارة ٢٤/ ٦/ ١٩٤٩.
(٣) جريدة الإخوان المسلمين، العدد ٢ـ ٢٦ محرم ١٣٥٣/ ١٩٣٤ ص ٢٤.
(٤) المنارة ١٤/ ١/ ١٩٤٩.
(٥) المنارة ١/ ٧/ ١٩٤٩.

المجتمع المصرى، ومنها التخبط والتردى الشديد للكثير من الزعامات السياسية وحالة الإحباط والإحساس بالضياع التى دفعت الجميع للبحث عن الخلاص، حتى لو كان هذا الخلاص طائفيًا، وربما يقلل من شدة الحكم على سرجيوس، ازدياد الصبغة الإسلامية على المجتمع المصرى آنذاك.

العمامة السوداء وحلم الوصول إلى مجلس النواب

وفى عام ١٩٤٩ أعلن القمص سرجيوس عن ترشيح نفسه لعضوية مجلس النواب عن دائرة الشماشرجى فى شبرا، وبرر سرجيوس نزوله إلى الساحة الانتخابية بأنه نزولا على إرادة الكثير من أبناء شبرا (١).

وقد أثار هذا الترشيح عديدًا من الأسئلة فى كواليس السياسة المصرية، عن السر وراء العودة الجريئة للقمص سرجيوس إلى الحياة السياسية، ورد سرجيوس على ذلك بأن الباعث الذى دفعه إلى المساهمة فى الحركة الوطنية فى ثورة ١٩١٩ هو الذى دفعه الآن لترشيح نفسه لعضوية مجلس النواب، وفسر سرجيوس ذلك بأنه طرأت على الساحة السياسية - فى عام ١٩٤٩ - عناصر سياسية جديدة لها «آراء متطرفة من شأنها أن تقضى على النتائج التى حصلنا عليها بجهدنا فى أيام الثورة، وقد أخذت على عاتقى أن أحارب هذه الروح الرجعية البغيضة» (٢).

من هنا اتهم البعض سرجيوس بالطائفية، وأن ترشيحه لمجلس النواب يرجع لأسباب طائفية بحتة لا صلة لها بمصالح الوطن، والمقصود بذلك مواجهة جماعة الإخوان المسلمين، لكن سرجيوس سرعان ما نفى ذلك بشدة، وصرح بأن دخوله البرلمان ليس لحساب حزب ما، أو فرد ما، وإنما من أجل مصر، وأنه كرجل دين قبطى عليه تبعات معينة من أجل الدفاع عن طائفته، وإصدار تشريعات لصالحها، إلا أنه برغم ذلك سيعمل فى مجلس النواب بوحى من ضميره الوطنى، ومن

---

(١) نفسه ١٥/ ٧/ ١٩٤٩.

(٢) مجلة الاثنين يوليو ١٩٤٩.

أجل الهدف الوطنى الذى سعى من أجله أيام ثورة ١٩١٩ . واستشهد سرجيوس على ذلك بأن ترشيحه فى الدائرة المذكورة قد حظى بتأييد المسلمين والأقباط فى هذه الدائرة (١) .

والواقع أن هناك العديد من المؤشرات التى يرى فيها البعض ترشيح سرجيوس لمجلس النواب عملا طائفيًا بحتًا، حيث أعلن سرجيوس صراحة أنه رشح نفسه لمواجهة تصاعد دور جماعة الإخوان المسلمين، التى رأى فيها ردة عن الروح التى خلقتها ثورة ١٩١٩ ، وربما يقلل من مدى واقعية مقولة سرجيوس السابقة أن المناخ السياسى ـ كما أوضحنا سابقًا ـ لم يعد يعط قضية الوحدة الوطنية نفس الاهتمام السائد إبان ثورة ١٩١٩ ، أضف إلى ذلك أن ترشيح سرجيوس قد جاء تاليًا لمرحلة مهمة من مراحل حياة سرجيوس، وهى المرحلة التى تفرغ فيها ـ إلى حد كبير ـ فى التورط مع بعض العلماء المسلمين فى الدخول فى مجادلات عقيمة من الطرفين حول علاقة الإسلام بالمسيحية، وفضلا عن هذا اختار سرجيوس إحدى دوائر شبرا التى تتميز بارتفاع كثافة المسيحيين بها .

كما ألح سرجيوس فى دعايته الانتخابية على أنه أول كاهن يرشح نفسه لعضوية مجلس النواب، وإن كان قد تم تعيين بعض رجال الدين فى مجلس الشيوخ (٢) . وعلى الرغم من التصريحات العديدة لسرجيوس من أن مؤيديه ليسوا من الأقباط فحسب، بل أيضًا من المسلمين، فإن المتتبع لسير حملته يرى غير ذلك، فقد كان منظمو الحملة الانتخابية له (٣) من أشهر الشخصيات القبطية فى شبرا (٤)، كما استخدم سرجيوس الكنائس كمنابر دعائية له. ولم نسمع عن خطب له فى المساجد تعيد إلى الأذهان ذكرى دوره الوطنى المجيد فى ثورة ١٩١٩ ، يضاف إلى ذلك

---

(١) نفسه.

(٢) المنارة ٢٢/ ٧/ ١٩٤٩ .

(٣) مثل الأستاذ فؤاد باسيلى المحامى ، الذى سيتغير اسمه ـ بعد دخوله إلى سلك الكهنوت ـ إلى القمص بولس باسيلى ، وسيكتب له أن يكون أول رجل دين منتخبًا عن الأقباط عن دائرة شبرا فى مجلس الأمة ، ويحقق مالم يستطع سرجيوس تحقيقه ، انظر : القمص بولس باسيلى ، مصدر سابق .

(٤) المنارة ٢٦/ ٨/ ١٩٤٩ .

تحالفه مع بعض المرشحين المسيحيين فى الدوائر الانتخابية الأخرى لشبرا، مثل فكرى مكرم عبيد [1].

وفى رأينا أنه لا ينبغى أن نشتد فى حكمنا على سرجيوس ونوصمه بالطائفية، ونصور نزوله إلى ميدان العمل السياسى مرشحًا بأنه كان عملا طائفيًا بحتًا. فإن هذه النقطة الشائكة ينبغى النظر إليها من خلال تعددية الأبعاد وليس أحاديتها. فهناك من ينظر إلى اهتمامات سرجيوس الطائفية ودفاعه عن « حقوق الأقباط» على أنه ليس عملا طائفيًا، بل جزءًا لا يتجزأ من العمل العام، إذ يهتم النائب بأدق شئون دائرته السياسية، ولا يعد ذلك نسيانًا للعمل العام بل يعتبر مساهمة فيه، فما بالنا بمن يهتم بشئون طائفته، وهى نطاق أعم وأشمل من الدوائر السياسية وجزء من المجتمع المصرى؟ كما يعد ذلك مقبولا فى إطار نظرية السماح بتعدد الانتماءات والهويات فى المجتمعات الديمقراطية، إلا أن هذا يصعب قبوله وتطبيقه فى مصر لانتشار الأمية وحدة التمايز الطائفى.

وقد يرى البعض أنه مهما يكن من ازدياد الاهتمامات الطائفية لسرجيوس آنذاك، كان من العسير عليه نسيان العمل الوطنى فى هذه الآونة الصعبة، فالعمل الوطنى هو الذى صنع مجد سرجيوس وجعل اسمه يتردد فى كل الأرجاء منذ ثورة ١٩١٩، وكان سرجيوس مدركًا تمامًا لأهمية ذلك، ويحرص على ترديده فى دعايته الانتخابية، فمن الشعارات التى رفعها سرجيوس « سرجيوس أول قسيس يدخل الأزهر خطيبًا، وأول قسيس يدخل البرلمان نائبًا»[2]. كما نظم البعض الأشعار لترسيخ هذا المفهوم فى أذهان الناس :

ما أحلى شيخ بجوار قسيس   يخطبانك كفى البرلمان [3]

وفى رأينا أن هذه الفترة قد اختلط فيها البعد الوطنى بالبعد الطائفى، حيث أصبح من العسير التفريق بينهما، سواء على الجانب الإسلامى، أم الجانب

(١) المنارة ٢١/ ١٢/ ١٩٤٩.
(٢) المنارة ٩/ ١١/ ١٩٤٩.
(٣) المنارة ١٤/ ١٢/ ١٩٤٩.

المسيحى. وكان سرجيوس مدركًا لذلك. ومن هنا رغب أن يستثمر وضعه كرجل دين مسيحى فى كسب أصوات الأقباط، وأن يستثمر ماضيه الوطنى فى ثورة ١٩١٩ فى كسب أصوات المسلمين، وإن لم ينجح كثيراً فى الهدف الأخير لطبيعة مناخ هذه الفترة، يضاف إلى ذلك ارتفاع كثافة المسيحيين فى الدائرة، مما جعله يفضل الانحياز كسبًا لأصواتهم.

والحق أن سرجيوس لم يكن الوحيد الذى يدرك اختلاط الوطنى بالطائفى آنذاك وإمكانية استخدامه، لاسيما فى المعركة الانتخابية التى يباح فيها كل شئ، إذ كان حزب الوفد على وعى تام بذلك، ويجيد استثماره لكسب أصوات الناخبين، إذ رشح الوفد فى دائرة الشماشرجى أحد الوجوه المسيحية الشابة لمواجهة سرجيوس، وهو إبراهيم فرج، الذى سيكون له دور مهم فى الوفد بعد ذلك. ولقد أدرك سرجيوس أن الوفد يلعب على تداخل الوطنى بالطائفى، حيث رشح مرشحه تحت اسم إبراهيم فرج، وهو اسم مشترك بين المسلمين والأقباط، حتى يخفى الهوية الدينية له، وهى حيلة لجأ إليها البعض كثيراً فى الانتخابات العامة، من هنا حرص سرجيوس - فى حملته الانتخابية - على ترديد اسم إبراهيم فرج مصحوبًا باسمه الثلاثى إبراهيم فرج مسيحة، حتى يفضح - من وجهة نظره - تلاعب الوفد بالانتماءات الدينية. وحتى يفقد خصمه أصوات بعض المسلمين، وأيضًا بعض أصوات الأقباط الذين لم يقبلوا مسألة إخفاء الهوية الدينية (١).

على أية حال اشتعلت الحملة الانتخابية بترشيح الوفد لإبراهيم فرج فى مواجهة القمص سرجيوس فى دائرة الشماشرجى بشبرا. ويذكر سرجيوس أن الشرطة قد انحازت لصالح المرشح الوفدى، وأنها منعت سرجيوس من استخدام «الميكروفون» فى عظاته بالكنائس، خشية أن تتحول هذه العظات إلى « مؤتمرات انتخابية» (٢). ومع سخونة المعركة الانتخابية بين سرجيوس وإبراهيم فرج، شن سرجيوس حملة شعواء على حزب الوفد. وشهر سرجيوس بالنحاس باشا زعيم الوفد شخصيًا. إذ

(١) المنارة ١٩٤٩/١١/٣٠.
(٢) المنارة ١٩٤٩/٨/٢٦.

رأى سرجيوس أن حسن البنا ـ على الرغم من الخصومة الشديدة بينهما ـ « أشرف من النحاس باشا فى خصومته»[1] . ولكننا فجأة نجد سرجيوس يتنازل عن الترشيح لصالح مرشح حزب الوفد، على الرغم من سابق الخصام بينهما . وفى مثل هذه الأحوال، عادة ما يتم التنازل فى إطار صفقة انتخابية . ويروى لنا القمص بولس باسيلى ـ الذى كان فى شبابه أحد أهم أعمدة الحملة الانتخابية لسرجيوس ـ تفاصيل هذه الصفقة، فوفقًا لهذه الرواية طلب الوفد من سرجيوس التنازل لصالح مرشحه فى مقابل أن يصدر الوفد بعد ذلك قراراً بتعيين سرجيوس فى مجلس الشيوخ . غير أن الوفد لم يف بهذا الوعد، وتنكر لسرجيوس . مما زاد من الضغائن التى يحملها سرجيوس للوفد [2] .

* * *

(١) المنارة ٢٨/ ١٢/ ١٩٤٩ .
(٢) القمص بولس باسيلى : المصدر السابق ، ص ٧١٤ .

الفصل الثانى

الموقف من القوى السياسية فى مصر

إن دراستنا لموقف سرجيوس من القوى السياسية فى عصره تحيط بها بعض الصعوبات المنهجية. فلم يكن سرجيوس ممثلا لتيار سياسى معين حتى نبحث عن موقفه من بقية القوى السياسية. من هنا يأتى وجه الصعوبة. فهل ننظر إلى سرجيوس على أنه يمثل نفسه فقط وبالتالى كيف يمكن لنا منهجيًا دراسة موقف شخص ما، مهما كانت سعة نشاطاته، من القوى السياسية المعاصرة له. وهل كان سرجيوس شخصية متفردة تخشاها أو تخطب ودها القوى السياسية المعاصرة ؟

إن سؤالنا الرئيسى هنا إلى أى حد يمكن دراسة موقف شخص ما مهما كانت فعاليته السياسية من القوى السياسية المعاصرة له، وأيضًا موقف هذه القوى منه ؟ إذ اعتادت هذه القوى التعامل مع قوى مثلها أو تيارات سياسية، فهل أدركت هذه القوى مدى ثقل الوزن السياسى لسرجيوس من عدمه؟

ويزيد من تعقد المشكلة طبيعة المنصب الدينى الذى يشغله سرجيوس كرجل دين، لاسيما مع شيوع الرأى القائل بأن المسيحية تدعو الإكليروس إلى عدم التورط فى الحياة السياسية، بينما يرى سرجيوس عدم تعارض النشاط الاجتماعى والسياسى لرجل الدين مع دوره الدينى. من هنا نتساءل عن أثر الوضعية الدينية لسرجيوس فى موقفه من القوى السياسية، وأيضًا فى نظرة هذه القوى له. وهل نظرت القوى السياسية إلى سرجيوس على أنه يمثل تيارًا راديكاليًا فى صفوف الأقباط، لاسيما فى فترات صراع سرجيوس مع الكنيسة، وبالتالى ابتعدت قوى سياسية معينة عن سرجيوس خشية إثارة غضب الكنيسة التى كانت تعتبر نفسها الممثل الشرعى الدينى الوحيد للأقباط، ومدى استخدام تيارات سياسية أخرى

لسرجيوس، من حيث يدرى أو لا يدرى، فى مناوأة الكنيسة وتأثيرها على الأقباط. وهل حاول البعض الاستفادة من سرجيوس كزعامة قبطية فى اكتساب ثقة بعض الأقباط لاسيما فى أثناء الحملات الانتخابية؟

أخيراً فإن امتداد العمر بسرجيوس وامتداد نشاطه الدينى والوطنى لما يقارب أو يزيد عن النصف قرن، قد أدى إلى معاصرة سرجيوس للعديد من القوى السياسية وأيضًا للعديد من المتغيرات السياسية. وربما دفع ذلك سرجيوس إلى تغيير مواقفه من هذه القوى سواء تحت تأثير عامل النضج السياسى بمرور الزمن، أو محاولة سرجيوس التأقلم مع المتغيرات الجديدة، وربما يحكم ذلك موقف هذه القوى السياسية من قضية كانت دائمًا تشغل بال سرجيوس وهى توسيع هامش ما أطلق عليه سرجيوس «حقوق الأقباط». من هنا يتبين لنا مدى الصعوبة المنهجية التى تواجه الدراسة التفصيلية لموقف سرجيوس من القوى المعاصرة له.

الموقف من الإنجليز

يعتبر موقف سرجيوس من الإنجليز من أهم مواقفه السياسية بصفة عامة. ويرجع ذلك إلى أنه الموقف الذى دخل منه إلى ميدان العمل الوطنى من أوسع أبوابه بعد دوره المشهود فى ثورة ١٩١٩، والحق أن موقف سرجيوس من الإنجليز سابق على ثورة ١٩١٩. إذ يحدثنا سرجيوس أنه فى أثناء خدمته الدينية فى السودان، قد قام بالعديد من النشاطات الاجتماعية والدينية سواء من خلال إلقاء العظات الدينية أو إصدار مجلته «المنارة» إلا أن السلطات رأت فى هذا النشاط إخلال بالأمن وإضرار بموقف إنجلترا فى السودان. واعتُبر القمص سرجيوس مناوئًا للوجود البريطانى فى السودان. وصدر الأمر بإبعاده إلى مصر فعاد إليها فى عام ١٩١٥ (١).

وفى عام ١٩١٩ كان سرجيوس على موعد مع بزوغ نجمه كزعيم ثورى قاد العديد من التظاهرات، وألقى العديد من الخطب النارية المحرضة على الثورة ضد

---

(١) المصور ١٦/ ٤/ ١٩٥٤ حديث خاص مع القمص سرجيوس.

الإنجليز. واستخدم سرجيوس أسلوبه النارى الساخر فى حض الجماهير على الثورة ضد الإنجليز. ومن أقواله المأثورة الساخرة، أنه خاطب الجماهير قائلا هل تعلمون لماذا وجه الإنجليز أحمر اللون؟ فردت الجماهير لماذا ؟ فأجاب لأنهم يشربون دماء المصريين. وحتى عندما رآه البعض يدخن سجائر إنجليزية، تساءل البعض كيف تشرب دخانًا إنجليزيًا ؟ فرد عليهم أنا أحرقه فقط[١].

ولم يكتف سرجيوس بالأقوال الساخرة فى مناوأة الإنجليز، وإنما قارعهم أحيانًا بالمنطق وبأسلوب أدبى رفيع. ففى عام ١٩١٩ أرسل سرجيوس رسالة إلى الجنرال اللنبى المندوب السامى البريطانى فى مصر. وفى هذه الرسالة اعترض سرجيوس على سياسة القمع البريطانية تجاه الثورة بصفة عامة، وتجاه الدور الذى لعبه سرجيوس فى هذه الثورة. وقال سرجيوس : «لست أدرى مسوغًا لهذا إلا أنى رفعت صوتى فى مصر مظهراً عواطف وشعوراً ما أتيتم إلى بلادنا إلا بحجة إحيائها فينا. أو لأنى أنادى باسم وطنى العزيز للحصول على الاستقلال والحرية التى سفك ملايين الرجال من البشر دماءهم فى سبيلها. وما كان ندائى إلا بالطرق السلمية المشروعة. فإن كنت رجلا وطنيًا، فلا تعيبوا على تمنيات قلبى الصالحة نحو وطنى المفدى بالمهج والأرواح. وقد سبقنى فى هذا المضمار أساقفة وقسوس كنيستكم الإنجليزية حينما تركوا مراكزهم وبيوتهم وأولادهم ولازموا ميادين القتال ليضرموا نار الحماسة فى نفوس مواطنيهم». كما سجل سرجيوس أيضًا اعتراضه على الممارسات القمعية للسلطة العسكرية البريطانية فى مصر «فلا تعيبوا على موقفى محتجًا على تلك الفظائع والقبائح التى صدرت من السلطة العسكرية، التى تقول دولتها إنها ما خاضت حومة الوغى إلا لتحمى ضعيفًا من سطوة قوى»[٢].

وبطبيعة الحال اعتبرت السلطة الإنجليزية سرجيوس مناوئًا لسياستها ومحرضًا على الثورة فألقت القبض عليه وأرسل إلى المعتقل فى رفح، ومكث هناك ـ كما مر بنا ـ حتى هدأت الأحوال، وعاد مرة أخرى إلى القاهرة.

---

(١) المنارة ١٧/ ٤/ ١٩٣٦ مذكرات سرجيوس.

(٢) المنارة ١٠/ ٤/ ١٩٣٦ مذكرات سرجيوس.

إلا أن هذا الموقف الحاد الذى وقفه سرجيوس من الإنجليز فى عام ١٩١٩ سرعان ما سيتغير مع مرور الزمان وتبدل الأحوال. إذ اتجه سرجيوس إلى مراجعة آرائه ومواقفه السابقة تجاه الإنجليز فى عام ١٩١٩ . ولدينا نص مهم لسرجيوس يرجع إلى عام ١٩٤٩ ، أى بعد مرور ثلاثين عامًا على وقفته التاريخية السابقة. وفى هذا النص يراجع سرجيوس نفسه بشدة فيما يتعلق بموقفه السابق فى ثورة ١٩١٩ والنص فى حد ذاته فى غاية الأهمية بحيث يصعب تلخيصه. يقول سرجيوس فى مجلته المنارة « آه أين أذهب أنا سرجيوس بوجهى لأنى ناديت وبح صوتى طالبًا خروج الإنجليز من مصر ويتركوننا نحن القبط مرة أخرى تحت رحمة من لا يرحمنا ـ الحكم الوطنى ـ وماذا أقول لهم وها نحن نتلقى نجدة ديننا وحريتنا على أيديهم ـ يقصد الإنجليز » . وبطبيعة الحال قد نصدم من جراء هذه الآراء الجديدة لسرجيوس والمراجعة الحادة لأفكاره ومواقفه الوطنية السابقة. إلا أننا قد نتخلى عن صدمتنا بعض الشيء، ونأخذ بعد ذلك فى تحليل النص السابق تاريخيًا، إذا قرأنا بقية النص والأسباب التى دعت سرجيوس إلى تبنى هذا الاتجاه الجديد. يقول سرجيوس فى بقية النص : « تكشفوا يا تلاميذ حسن البنا وأقيموا الدليل على أنكم لا تصلحون لإدارة هذه البلاد، وأن الإنجليز ألزم لحفظ حضارتها وحريتها وسعادتها منكم»(١) .

هكذا تتضح لنا الأسباب وراء مراجعة سرجيوس لأفكاره ومواقفه السابقة من الإنجليز. إذ يرى سرجيوس أن العامل الرئيسى وراء ذلك هو ظهور حركة الإخوان المسلمين، التى ساعدت ـ فى رأيه ـ على انشطار المجتمع المصرى، وإعلاء شأن الهوية الدينية على حساب الوطنية المصرية. وقد يرى البعض فى آراء سرجيوس السابقة نوعًا من أنواع الخيانة لآرائه السابقة عن الوطنية، ودعوة إلى مزيد من التدخل الإنجليزى فى الشئون الداخلية لمصر تحت اسم « حماية الأقليات». وهو المبدأ الذى رفضه الأقباط من قبل، وها هو أحد أهم زعمائهم الداعين إلى الوحدة الوطنية، يدعو الآن إلى العمل به.

وفى رأينا أن هذا التحول الخطير والحاد فى موقف سرجيوس من الإنجليز يجب

(١) المنارة ١/٧/١٩٤٩.

النظر إليه من عدة أبعاد تاريخية وربما نفسية أيضًا . ففى البداية نحن لا نقبل الشك فى وطنية سرجيوس خطيب ثورة ١٩١٩ ، وإلا تنكرنا لفترة تاريخية زاهرة من تاريخ مصر ، كان سرجيوس أحد أعلامها الوطنيين . ولكننا نرى أن ظهور جماعة الإخوان المسلمين قد زاد من حاجز العزلة وإحساس الأقلية لدى الأقباط . وبدون الدخول فى تحليل نفسى ، فإننا نرى أن ظهور الجماعة قد دفع ببعض الأقباط إلى حالة أشبه بالفصام ، وصراع نفسى حاد بين الهوية القبطية والهوية الوطنية . ويظهر ذلك من كم المبالغة ـ من جانب سرجيوس ـ فى أثر ظهور الإخوان المسلمين على المجتمع المصرى ، وخطرها على الوحدة الوطنية . إذ يرى سرجيوس أن أتباع الإخوان المسلمين منتشرون فى جميع أنحاء البلاد ، وفى الإدارات الحكومية ، وأن الحكومة خاضعة لهم . من هنا ومن جراء التمزق النفسى ، يرى سرجيوس أن إنجلترا هى الحامية الوحيدة لحقوق الأقباط ، سواء إحياء لمبدأ حماية الأقليات ، أو حتى اعتزازًا بمبدأ «الأخوة المسيحية» ، وتأكيدًا لنفوذ إنجلترا فى مصر . على أية حال يجب النظر إلى الموقف الجديد لسرجيوس تجاه الإنجليز فى إطار الصراعات السياسية والاجتماعية التى كانت تمر بها مصر بعد الحرب العالمية الثانية والتى كانت فى حقيقة أمرها المخاض التاريخى لانهيار النظام القديم تمهيدًا لمرحلة جديدة من تاريخ مصر وهى ثورة ١٩٥٢ .

سرجيوس بين الملكية وثورة يوليو

يعتبر الملك أو مؤسسة القصر من أهم أعمدة النظام السياسى فى مصر قبل ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ (١) . من هنا كان بديهيًا أن يكون لسرجيوس كشخصية عامة موقف من هذه المؤسسة السياسية المهمة . لكن المادة التاريخية المتاحة لنا عن هذه النقطة لا تغطى إلا فترة حكم الملك فاروق ، ولا تتوافر لدينا معلومات مهمة عن فترة الملك فؤاد .

وفى بداية حكم الملك فاروق ، توسمت الأمة كلها فى الملك الجديد ، صورة

---

(١) عن القصر ودوره فى الحياة السياسية انظر :
دراسة سامى أبو النور عن دور القصر فى الحياة السياسية ، القاهرة ، ١٩٨٥ .

الملك الشاب الذى ينبىء عن مستقبل زاهر لمصر. وهى الصورة التى استمرت لفترة ليست بالقليلة فى بداية حكم الملك فاروق. من هنا لم يخرج سرجيوس عن إجماع الأمة حول عقد الأمل والرجاء فى الملك الشاب. واستغل سرجيوس فرصة زواج الملك فاروق ليعبر له عن ولائه قائلا فى مجلته المنارة « متع الله جلالتيهما ـ فاروق وزوجته ـ بالملك السعيد والحياة الممتلئة بالصحة والمسرات تحوطهما قلوب الشعب المخلص الأمين» (١). كما نظر سرجيوس إلى الملك على أنه رمز مصر الذى يمكن أن يلتف حوله المصريون جميعًا بصرف النظر عن اختلاف هويتهم الدينية. إذ ينتهز فرصة حلول عيد ميلاد الملك قائلا « إن أصحاب الديانات الثلاث جمعهم عيد واحد وهو عيد ميلاد جلالة الملك فاروق» (٢).

ومن مفهوم دينى بحت اشترك سرجيوس كرجل دين مسيحى مع معظم معاصريه من رجال الدين المسيحى والإسلامى فى الحث والدعوة على الولاء والطاعة للملك، سواء من خلال مفهوم «أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله» فى المسيحية، أو مفهوم طاعة ولى الأمر فى الإسلام. ويتضح ذلك من دعوة سرجيوس إلى الحفاظ على حقوق الملك والطاعة له قائلا « إن كثيرين من غلاة الوطنية يظنون أن الوطنية اعتداء على حقوق الملك وعدم الإخلاص له فهؤلاء فى ضلال يعمهون.. قال الكتاب المقدس «خافوا الله أكرموا الملك ». (٣)

ويستمر سرجيوس فى ولائه للملك وتصبح المنارة من منابر الدفاع عن النظام الملكى حتى مع تدهور شعبية الملك فاروق بعد ذلك. إذ يجمع سرجيوس بين إرادة الملك وإرادة الشعب ويوحد بينهما، بحيث يصبح الملك هو الشعب، والشعب هو الملك. يقول سرجيوس فى عام ١٩٤٩ « قيل قديمًا كلام الملوك ملوك الكلام. واليوم يقول جلالة الملك فاروق كلام الشعب كلام الملوك، ورغبة الشعب رغبة الملوك، وأمنية الشعب، أمنية الملوك» (٤). بل ويربط سرجيوس اسمه باسم

---

(١) منارة ٤/ ٢/ ١٩٣٨.
(٢) منارة ١١/ ٢/ ١٩٣٨.
(٣) منارة ٢٢/ ٤/ ١٩٣٨.
(٤) منارة ٥/ ٨/ ١٩٤٩.

الملك، ويربط بين كلاهما وبين الوطنية ورموز الوحدة الوطنية. إذ ينشر فى مجلته المنارة أشعاراً تقول :

في الأزهر ارتفع الصليب والهلال ... تحـيا الـبلاد وشـعبها ومليكها
بفضـل دعـوة سـرجيـوس ... تحـيـا المشـايـخ والقسـوس [1]

من ناحية أخرى كان سرجيوس رجلا سياسيًا مثلما كان رجلا دينيًا. من هنا سيعمل سرجيوس على الاستفادة من موقفه السياسى الموالى للملك فى صراعاته الدينية والسياسية. ففى أثناء صراع سرجيوس مع البطريرك سيقود سرجيوس مظاهرة من الأقباط تتجه إلى محاصرة الدار البطريركية. لكن البطريرك يطلب تدخل الشرطة لحماية الدار البطريركية، ومواجهة المتظاهرين. وبالفعل تتدخل الشرطة لتفريق المتظاهرين. إلا أن سرجيوس سيلجأ إلى حيلة ماكرة لتحييد الشرطة. إذ يهتف سرجيوس « يحيا الملك ويسقط مَلكْ». والمقصود بهذا الهتاف بحياة الملك فاروق، والهتاف بسقوط مَلكْ مساعد البطريرك، الذى كان فى حقيقة أمره الشخصية المسيطرة على البطريرك، وعلى الشئون القبطية آنذاك. وهكذا لا تستطيع الشرطة مهاجمة من يهتفون بحياة الملك [2].

كما سيستغل سرجيوس ولاءه للملك فى صراعه مع الوفد وزعيمه النحاس باشا[3]. وكانت آخر هذه المواقف بعد حادث حرق كنيسة السويس فى يناير ١٩٥٢. حيث رأى سرجيوس أن حكومة الوفد بزعامة النحاس عاجزة عن الحافظ على الأمن مما يهدد الوحدة الوطنية. من هنا أرسل فى ١٠ يناير ١٩٥٢ ببرقية إلى الملك مطالبًا باستقالة وزارة النحاس[4]. وهى الوزارة التى سرعان ما سيقيلها الملك بعد حريق القاهرة فى ٢٦ يناير ١٩٥٢.

لكن موقف سرجيوس الموالى للملك والمخلص له سرعان ما سيتغير مع التغير المهم والخطير الذى ستشهده مصر فى نظامها السياسى بقيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢،

---

(١) منارة ٣٠/ ١١/ ١٩٤٩.

(٢) القمص بولس باسيلى : المرجع السابق ص ١٤٩.

(٣) انظر موقف الوفد من ترشيح سرجيوس لمجلس النواب فى عام ١٩٤٩ فى الفصل السابق.

(٤) يذكر ذلك سرجيوس فى عدد المنارة فى ٢٨/ ١/ ١٩٥٢.

فبعد أسبوع واحد من طرد الملك فاروق، يكتب سرجيوس مرحبًا بالثورة قائلا «يلمس المصريون قاطبة روحًا طيبة ترفرف على البلاد التى بوركت منذ القديم من الله القائل «مبارك شعبى مصر». هذا الروح ينطق على كل لسان وشفة ينادى فى الأفراد والجماعات والأحزاب والهيئات على اختلاف نزعاتها طالبًا ملحّا بالإصلاح والتطهير والتحرير» [(١)]. وبعد مرور أقل من ثلاثة أشهر على قيام ثورة يوليو، يغير سرجيوس بصورة حادة من نظرته السابقة للملك فاروق إذ يصفه بأنه «الطاغية الذى كان ينظر إلى المصريين كأنهم أغنام وجاموس». ويعلى من شأن اللواء محمد نجيب قائد الثورة، الذى «يضع روحه على كفه ويخاطر بحياته، ويرمى بها بين أنياب الموت فيدخل إلى القصر الملكى، ويقول لفاروق : باسم الشعب، انزل عن العرش لينتهى عهد الطغيان والفساد، فينزل صاغرًا» [(٢)].

فبماذا نفسر هذا الانقلاب الحاد فى موقف سرجيوس من الملكية إلى الثورة ؟ يجرنا هذا إلى دراسة موقف الأقباط بصفة عامة من الثورة، وموقف سرجيوس على وجه الخصوص. ففى الحقيقة أعربت كافة الدوائر السياسية والاجتماعية عن تأييدها المبكر والحذر للثورة، أو «للحركة المباركة» أو «حركة الجيش». وعلى ذلك لن يخرج الأقباط كثيرًا عن هذا الإجماع. إذ أرسل بطريرك الأقباط يوساب الثانى برقية تأييد إلى اللواء محمد نجيب فى ٢٩ يوليو ١٩٥٢، أى بعد حوالى أسبوع واحد من الثورة، فضلا عن برقيات تأييد أخرى من جمعيات قبطية [(٣)].

كما أعلنت جريدة مصر أشهر الجرائد القبطية عن تأييدها المبكر للثورة، إذ صرحت فى ٣٠ يوليو ١٩٥٢ «إلى غير عودة عهدًا - بعد رحيل فاروق - كنا نعيش فيه، وفريق يعيش فى النعيم المقيم، وفريق آخر كأنه أجرم فى هذا البلد . . . ذلك لأن الكلمة يوم ذاك كانت للفساد، كانت للباطل، كانت للجهل المخيم والمسيطر على العقول» [(٤)].

---

(١) منارة ٢/ ٨/ ١٩٥٢.
(٢) منارة ١٨/ ١٠/ ١٩٥٢.
(٣) مصر ٣٠/ ٧/ ١٩٥٢، وأيضا ٣١/ ٧.
(٤) مصر ٣٠/ ٧/ ١٩٥٢.

وبعد أسبوع واحد من الثورة أصدر البطريرك أوامره بإقامة الصلاة فى الكنائس من أجل الجيش والدستور [١]. وأرسل اللواء نجيب وفداً من لديه لزيارة البطريرك فى الأول من أغسطس، وقام البطريرك بنفسه بزيارة نجيب بعد ذلك بأقل من أسبوع[٢]. كما قام وفد من الضباط بزيارة سرجيوس فى كنيسته بالقللى فى يوم الأحد ٣ أغسطس ١٩٥٢ [٣].

هكذا نرى أنه كان هناك شبه إجماع من جانب الأقباط بالتأييد المبكر الحذر للثورة. ونقول الحذر لأنه قد ظهرت فى بداية الثورة بعض المنشورات المنسوبة لجهات قبطية ترى أن «حركة الضباط» تعمل لحساب جماعة الإخوان المسلمين، وأن محمد نجيب على علاقة طيبة بالإخوان. من هنا اهتزت إلى حد ما العلاقة بين الثورة والأقباط. ولم تكن مظاهر التأييد السابقة إلا محاولة من جانب كل من الثورة والمؤسسات القبطية لتجاوز الأثر النفسى لهذه المنشورات.

ولا نعلم مصدر هذه النشرات، إلا أن سرجيوس وقف خطيبًا فى ٣ أغسطس ١٩٥٢ منددًا بهذه المنشورات، حيث نفى صدورها عن الأقباط قائلا « لا يعقل أن تصدر عنهم مثل هذه النشرات التى لا تتفق مع ماضيهم المشرف ولا مع تضحياتهم، ولا مع حكمتهم التى اشتهروا بها. إنهم لا يصرخون قبل أن يروا الخطر، وإذا رأوا الخطر فإنهم لا يلجئون إلا إلى الله كما اعتادوا منذ القديم» [٤].

وهكذا نرى أن سرجيوس لم يخرج فى تأييده المبكر للثورة عن إجماع الأقباط، بل عن إجماع الشعب المصرى بصفة عامة. والحق أن تحول سرجيوس من الملكية إلى ثورة يوليو يتفق تمامًا مع عقيدته الدينية والسياسية. فقد ذكر سابقًا فى تأييده للملك المقولة الدينية « خافوا الله أكرموا الملك» أى طاعة الحاكم مهما تغيرت طبيعة الحاكم. أيضًا لا يمكن أن ننسى أن سرجيوس كان رجلا سياسيًا، وبالتالى عليه أن يتكيف مع المتغير السياسى الجديد، لاسيما وأن الاتجاه العام سواء من الصحف أو الأحزاب قد اتجه إلى تأييد الثورة، وبناء جسور ثقة معها. وتسارعت جميع

---

(١) مصر ١/ ٨/ ١٩٥٢.
(٢) مصر ٢/ ٨/ ١٨٥٢. وأيضا ٨/ ٨/ ١٩٥٢.
(٣) منارة ٩/ ٨/ ١٩٥٢.
(٤) نفسه.

الأطراف لجذب الثورة إليها. كما أراد سرجيوس من خلال تأييده للثورة جذبها إلى هدفه الحيوى آنذاك وهو الإصلاح الكنسى. من هنا ستنشر المنارة العديد من البرقيات التى أرسلت من مؤيدى سرجيوس إلى اللواء نجيب تطالبه بمباركة حركة التطهير التى يدعو إليها سرجيوس فى الكنيسة أسوة بحركة التطهير فى الإدارة المدنية (١). وهى الحركة التى دعا إليها نجيب لتطهير الحياة السياسية والأحزاب فى مصر من رجال العهد السابق. إلا أن أمنيات وأحلام سرجيوس بالنظام الجديد، نظام يوليو، ستذهب أدراج الرياح، إذ سيحدث الصدام مبكراً، ويكون نظام يوليو بمثابة البيات الشتوى الطويل لسرجيوس الذى لن يخرج منه إلا بالوفاة كما سنعرض لذلك فى حينه.

سرجيوس والوفد

إذا كانت مواقف سرجيوس مع القوى السياسية السابقة مثيرة وحادة ويصعب تفسيرها من خلال عامل واحد، فإن قصة سرجيوس مع الوفد أكثر إثارة وأعقد عند التفسير. إذ بدأ بزوغ نجم سرجيوس كزعيم وطنى مع بزوغ الوفد كعباءة ضمت جميع المصريين فى أثناء ثورة ١٩١٩. ويسجل سرجيوس فى ذكرياته إعجابه الشديد بزعيم الوفد وزعيم ثورة ١٩١٩ سعد زغلول الذى وقف أمامه سرجيوس خطيبًا داعيًا للثورة ممجداً بسعد قائد الثورة. حتى أن سعد زغلول أطلق عليه لقب «خطيب الثورة» (٢). وهذا اللقب هو أحب الألقاب إلى قلب سرجيوس حتى أيامه الأخيرة. ونظر سرجيوس إلى زغلول على أنه رمز الوحدة الوطنية، وأن شخصية زغلول هى التى دفعت الأقباط فى ثورة ١٩١٩ إلى « تلبية نداء الوطن الذى صهرتهم نار حبه فانصبوا مع مواطنيهم فى قالب الوحدة الوطنية فصاروا معهم كتلة واحدة. وكان زعيم المصريين سعد باشا الذى تلاقوا تحت رايته مع مواطنيهم» (٣).

---

(١) منارة ١٩٥٢/٨/٣٠

(٢) المصور ١٦/ ٤/ ١٩٥٤، وأيضا القمص بولس باسيلى، المصدر السابق ص ١٥٠.

(٣) ١١/ ٢/ ١٩٣٨.

لكن علاقة سرجيوس بالوفد ستزداد سوءاً، لاسيما مع الزعيم التالى للوفد النحاس باشا . حتى أن سرجيوس على الرغم من عدائه الشديد لحسن البنا والإخوان المسلمين، سيرى أن حسن البنا أشرف من النحاس فى خصومته [١]. فما هو السر وراء هذا الموقف الحاد من سرجيوس تجاه الوفد وزعيمه.

قد يرى البعض أن سبب خصومة سرجيوس للنحاس والوفد ترجع إلى أسباب شخصية تتمثل فى ترشيح الوفد لإبراهيم فرج لعضوية مجلس النواب ضد سرجيوس فى دائرة الشماشرجى فى شبرا فى عام ١٩٤٩ . وهى الحادثة التى مر بنا أحداثها المثيرة فى الفصل السابق.

وفى رأينا أنه لا يمكن أن نفسر موقف سرجيوس من الوفد من خلال الحادثة السابقة فقط فالأمر أعقد من ذلك، وله أوجه متعددة، فهناك بعض الروايات التى تعود بالخلاف بين سرجيوس والوفد إلى ما قبل ذلك، بل وقبل زعامة النحاس للوفد. فعلى الرغم من الاحترام الشديد الذى يكنه سرجيوس لسعد زغلول كزعيمًا وطنيًا إلا أن هذا لم يمنع سرجيوس من تسجيل اعتراضه على مواقف سياسية للوفد تحت زعامة سعد زغلول، بعد تحول الوفد من رمز وطنى إلى حزب سياسى قائم على رمز وطنى. ففى أثناء انتخابات عام ١٩٢٣ رشح الوفد مرشحًا وفديًا أمام الكاتب الكبير فكرى أباظة. ووقف سرجيوس إلى جانب فكرى أباظة ضد المرشح الوفدى. مما دفع بالوفد إلى النزول بكل ثقله وراء المرشح الوفدى. فشارك فى مؤتمراته الانتخابية كبار زعماء الوفد مثل فتح الله بركات وعلى الشمسى ومكرم عبيد. لكن سرجيوس وقف لهم فى السرادق موبخًا قائلا « بلاش هلس أنتم عاوزين تنتخبوا كشكش بك فى البرلمان» [٢]. وهكذا كان سرجيوس يفرق بين سعد زغلول كزعامة وطنية فى ثورة ١٩١٩ وزغلول كزعيم لحزب الوفد.

ولا تعود جذور الخلاف بين سرجيوس والنحاس والوفد إلى مواقف شخصية كحادثة الترشيح فى عام ١٩٤٩، وإنما ترجع إلى عوامل موضوعية، إذ يتصل ذلك

---

(١) منارة ٢٨/ ١٢/ ١٩٤٩.
(٢) منارة ١٩/ ١٠/ ١٩٤٩.

بتطور نشاط سرجيوس واهتمامه بما أطلق عليه «حقوق الأقباط» كما لا يمكن أن نتجاهل تطور وضع حزب الوفد نفسه، من عباءة للوحدة الوطنية إلى حزب سياسى له حساباته السياسية التى قد تتعارض مع مبادئه الأولية أو بمعنى آخر تحول الوفد من الرمز إلى الواقع. إذ تأخر موقع قضية الوحدة الوطنية، التى كانت من أولويات الوفد، إلى ذيل اهتماماته. وشهدت فترة الثلاثينيات بدايات عودة الصراع الطائفى فى مصر. واكتفى الوفد بالحلول الرمزية من خلال إبرازه لبعض الشخصيات القبطية المهمة، دون محاولة تقديم حلول واقعية لهذا الأمر الشائك الذى تضاعفت آثاره بعد ذلك. من هنا يقول سرجيوس فى عام ١٩٣٨ «إن النحاس باشا أو مكرم باشا ما كانا فى يوم من الأيام عونًا للأقباط على حل مشاكلهم الطائفية، ولا بمانحى الأقباط حقًا من الحقوق لم تمنحه لهم الحكومات غير الوفدية»(١).

ويشير النص السابق إلى سبب مهم من أسباب مناوأة سرجيوس للوفد، و هو الموقف من المشاكل الطائفية. ففى الواقع لم يريد الوفد التورط فى المشاكل الطائفية القبطية فيما يتعلق بالصراع بين الكنيسة والمجلس الملِّى ومسألة إدارة الأوقاف القبطية التى طالما ما عرضت على البرلمان (٢)، فى محاولة لإيجاد مخرجًا لها. إذ أدرك الوفد أن تورطه فى هذه الأمور سيفقده مكانته كما يرى الوفد عند جموع الأقباط التى تقف وراء الكنيسة. لاسيما وأن الوفد كان يرى فى نفسه الممثل السياسى للأقباط. لكن سرجيوس رفض « الوصاية» السياسية للوفد على الأقباط، ورأى أن مشاركة الأقباط فى ثورة ١٩١٩ هى التى صنعت مجد الوفد.

وقد يبدو فى رأى سرجيوس بعد المبالغة الطائفية وبعض التحامل على الوفد إلا أن هذا لا ينفى دور الوحدة الوطنية فى ثورة ١٩١٩ وفى قوة الوفد نفسه. وهذا ما يعترف به سرجيوس« قام الوفد على أساس وحدة الهلال مع الصليب ». كما أخذ

---

(١) المنارة ١١/ ٢/ ١٩٣٨.

(٢) طارق البشرى: المرجع السابق ص ٤٠٣، ٤٣٩.

سرجيوس على الوفد الاكتفاء بالاعتماد على بعض الرموز السياسية القبطية، وعدم سماحه بتوسيع قاعدة المشاركة السياسية القبطية. إذ يذكر سرجيوس أنه فى أثناء انتخابات ١٩٤٩ رشح الوفد ٣٠٠ مرشح لم يكن بينهم سوى ١٢ قبطيًا فقط(١). ويمكن أن نضيف إلى ذلك موقف سرجيوس من مسألة الصراع على زعامة الأقباط. إذ رأى الوفد فى نفسه الممثل السياسى للأقباط، وحرص على وجود زعامات قبطية بارزة فى صفوفه، مثل مكرم عبيد و إبراهيم فرج. ويلاحظ دخول سرجيوس فى صراع ومجادلات عنيفة مع مكرم عبيد فى أثناء وجوده فى الوفد، حيث اتهمه بأنه يضيع حق الأقباط. بينما اتهم مكرم عبيد فى سرجيوس أنه «قضى السنين فى شتم المسلمين والطعن فى الإسلام بأقذر قلم وأفحش لسان»(٢). كما مر بنا الصراع السياسى وتبادل الاتهامات بين سرجيوس وإبراهيم فرج فى أثناء انتخابات ١٩٤٩ (٣).

أضف إلى ذلك ولاء سرجيوس للملك ولما كان الوفد فى صراع شبه دائم مع الملك لاسيما فيما يتعلق بالسلطة والحقوق الدستورية، كان من الطبيعى أن يناوئ سرجيوس الذى يدافع عن الحقوق الدستورية للملك، ضد محاولات الوفد فى الحد من ذلك (٤). كما وقف سرجيوس دائمًا إلى جانب النقراشى وأحمد ماهر بعد خروجهما من الوفد وتشكيلهما للهيئة السعدية المناوئة للوفد (٥). وهو ما سنعرضه بالتفصيل عند الحديث عن علاقة سرجيوس بأحزاب الأقلية.

هكذا يتضح لنا أن الموقف الحاد الذى وقفه سرجيوس من الوفد يعود لأسباب سياسية فى المقام الأول تتمثل فى مسألة الصراع على الزعامة السياسية للأقباط، إلى جانب بعض الأمور الثانوية مثل مسألة حقوق الأقباط والولاء للقصر.

---

(١) المنارة ٧/ ١٢/ ١٩٤٩.

(٢) الوفد المصرى ٩/ ٤/ ١٩٣٨.

(٣) انظر الفصل السابق.

(٤) منارة ٢٢/ ٤/ ١٩٣٨.

(٥) الوفد المصرى ٩/ ٤/ ١٩٣٨.

سرجيوس والإخوان المسلمين

ظهرت جماعة الإخوان المسلمين فى عام ١٩٢٨ على يد الشيخ حسن البنا فى مدينة الإسماعيلية، وسرعان ما انتقلت إلى القاهرة حيث اتسع نشاطها وتطور دورها تطوراً سريعًا. ومهما نتفق أو نختلف حول طبيعة الأفكار التى طرحتها الجماعة، إلا أنه يبقى أن هذه الجماعة لعبت دوراً لا يستهان به فى الحياة السياسية فى مصر فى القرن العشرين. من هنا كان من الطبيعى أن يكون لسرجيوس موقفًا من هذه الجماعة.

والحق أن موقف سرجيوس من جماعة الإخوان المسلمين كان واضحًا وصريحًا - إلى حد ما - منذ البداية، ولا تشوبه بشكل حاد التعقيدات والحسابات السياسية التى شابت علاقته بالقوى الأخرى. ويرجع ذلك إلى التناقض الحاد بين العقيدة السياسية لكليهما منذ البداية. فبينما كانت الجماعة تدعو إلى الأخوة الإسلامية العالمية وترى فى الوطنية بعض التناقض مع الإسلام. كان سرجيوس - وربما معظم الأقباط - يرى فى الأخوة الإسلامية العالمية تناقضاً مع الوطنية المصرية، بل وخيانة لها، وأن الوطنية المصرية هى الضمان الوحيد لحقوق الأقباط.

من هنا شن سرجيوس العديد من الحملات على جماعة الإخوان المسلمين وحملهم مسئولية الروح الطائفية التى ظهرت آنذاك وأحداث العنف بين المسلمين والمسيحيين. حيث رأى أن ظهور الجماعة كان هو السبب وراء زوال روح الوحدة الوطنية التى ظهرت فى ثورة ١٩١٩ « ما قاموا به - الإخوان - وما بثوه من روح الانقسام والتفريق بين الإخوان المتحابين الذين ضربت باتحادهم وتضامنهم الأمثال فى الشرق والغرب يوم نادى المنادى يحيا الهلال مع الصليب، كانت نعرتهم الآثمة هى عين الفتنة فى البلاد يوم تظاهروا بالغيرة على الإسلام» (١).

فى الواقع كان ظهور الإخوان المسلمين سببًا فى زيادة التمايز الدينى بين المسلمين والأقباط. لكننا لا نستطيع أن نوافق سرجيوس على تحميل الإخوان عبء إثارة روح الفتنة الطائفية وأحداث العنف الطائفى آنذاك. فالحق أن المسألة الطائفية

---

(١) منارة ١٣/ ٥/ ١٩٤٩ .

فى مصر سابقة على ظهور الإخوان، كما أن ملابساتها أعقد من أن تلقى على عاتق الإخوان المسلمين وحدهم. ولكننا لسنا فى مجال يسمح لنا بالحديث عن هذه التعقيدات والملابسات التاريخية.

ويذكر سرجيوس أنه أول من قاد الحملات الصحفية فى مواجهة الإخوان المسلمين، كما دعا الحكومات إلى ضرورة التصدى لها. إذ رأى فى الجماعة خطراً يهدد البلاد (١). لكن سرجيوس يرى أن الحكومة تهاونت كثيراً فى أمر الجماعة «وتركت لهم الحبل على الغارب» وأنها رضخت لما أطلق عليه «تلاميذ حسن البنا» المنتشرين - على حد تعبيره - فى جميع مرافق البلاد (٢).

والحق أن الصراع بين سرجيوس والإخوان المسلمين لم يكن صراعًا سياسيًا محضًا وإنما اختلط فيه السياسى بالدينى، إذ دخل سرجيوس فى صراعًا وجدلا دينيًا فى فترة من حياته كما مر بنا حيث صنف العديد من المقالات والكتابات فى الرد على كتابات إسلامية تتناول بالنقد والتجريح أحيانًا المسيحية (٣). وقد مر بنا ذلك فى الفصل السابق. وقد تصدى العديد من قيادات الإخوان لسرجيوس من هذه الناحية. إذ كتب عبد الرحمن رضا كحيلة مندوب مكتب الإرشاد مقالا حادًا ندد فيه بكتابات سرجيوس الدينية ورأى أن سرجيوس بكتاباته هذه «يثير كمّا من الفتنة» (٤) كما نزل حسن البنا بنفسه فى هذا المجال وكتب مقالة ذات عنوان صارخ «بالتى هى أحسن، إلى القمص سرجيوس». وهى فى حقيقة أمرها رد على مقالات سرجيوس فى المنارة تحت عنوان «هل تنبأت التوراة والإنجيل عن محمد». وهى المقالات التى جمعها سرجيوس ونشرها فى كتاب يحمل نفس

---

(١) منارة ١٤/١/١٩٤٩.

(٢) منارة نفسه. ويذكر سرجيوس جيوش اضطهاد الإخوان للأقباط «إذا ما امتنعت عنها أمطار السماء استمطرت عيون المسيحيين لتروى ظمأ تلاميذ حسن البنا ومعتنقى مبادئ الإخوان المسلمين» المنارة ٢٤/٦/١٩٤٩

(٣) لا نستطيع أن ننكر أثر التبشير، ومجادلات المبشرين فى زيادة حجم الجدل الدينى آنذاك، انظر على سبيل المثال جدلا بين مبشر أمريكى وأحد الإخوان فى الإخوان المسلمين ٧ ربيع الثانى ١٣٥٣، تحت عنوان حديثى مع مبشر أمريكى.

(٤) الإخوان المسلمين ربيع الثانى ١٣٥٣. وهو والد الدكتور عبادة كحيلة أستاذ التاريخ الإسلامى بجامعة القاهرة.

العنوان. ورأى حسن البنا فى سرجيوس أنه « ذو لونين كلاهما غير مشرف، فهو إما جاهل بالألفاظ والمعان، والجهل عار ومنقصة وإما خائن مفتر، والافتراء سبة وتضليل»(١).

ووفقًا لبعض الروايات الشفوية من أحد المقربين من سرجيوس (٢)، تدخل النقراشى بين سرجيوس وحسن البنا لإيقاف الحملات الصحفية المتبادلة. و يؤكد ذلك إلى حد كبير أن سرجيوس ذاته قد ذكر أنه دعا إلى إجراء حوار مع جماعة الإخوان المسلمين فى وقت من الأوقات « عقد المؤتمرات والمجامع لمحاورة الجماعة». لكن سرجيوس فى مرحلة لاحقة يبرر ذلك بأن هدفه من وراء هذا الحوار فضح الجماعة علانية وإثبات بهتان أفكارهم وعجزها عن مواكبة العصر (٣).

وقد يتفق هذا التبرير مع طبيعة سرجيوس التى تميل إلى الجدل السياسى، لكننا لا نعتقد أن سرجيوس ـ كرجل سياسة ـ كان يجهل أن مجرد إجراء حوار مع الجماعة، بصرف النظر عن الهدف من وراء ذلك، يعنى فى الوقت نفسه الاعتراف بالجماعة وبدورها فى الحياة السياسية المصرية. إن سرجيوس فى هذا الشأن كان يتصرف بوحى من عقلية السياسى، التى كانت تسيطر عليه فى كثير من الأحيان. إنه يشن الحملات الصحفية الحادة، لكنه فى الوقت نفسه شديد الحرص على ترك باب الحوار مواربًا، مدركًا لمدى الثقل السياسى للجماعة. لكن الخلاف بين الإخوان وسرجيوس سيتصاعد بعد مصرع النقراشى باشا رئيس الوزراء على يد أحد أعضاء الجماعة فى عام ١٩٤٩. ورأى سرجيوس أن مصرع النقراشى قد جاء نتيجة موقفه الصلب من الجماعة أو على حد تعبيره « الجمعية المنحلة»(٤).

هكذا اختلط فى موقف سرجيوس من الإخوان المسلمين العامل السياسى بالعامل الدينى، وكيف لا وسرجيوس فى المقام الأول رجل دين، ودعوة الإخوان فى المقام الأول دعوة دينية، وكلاهما دخلا السياسة من الباب الدينى. وقد ساعد على ذلك اختلاط الوطنى بالطائفى آنذاك.

---

(١) الإخوان المسلمين ٢٦ محرم ١٣٥٣.
(٢) حديث مع القس إبراهيم عبدالسيد.
(٣) منارة ١٤/ ١/ ١٩٤٩.
(٤) المنارة ٧/ ١/ ١٩٤٩.

أحـزاب الأقليـة

فى رأينـا أنه هناك العـديد من العـوامـل التى حكمـت العـلاقـة بين سـرجيـوس وأحزاب الأقلية. ربما يأتى على رأسها مناوأة سرجيوس الدائمة للوفد، ومن هنا كان طبيعيـاً أن يميـل إلى جانب أحـزاب الأقلية التى كـانت تقريبًا على غير وفاق بل وأحيانًا فى صراع حاد مع الوفد. يضاف إلى ذلك العامل الشخصى ونقصد به الصلات الشخصيـة التى ربطت بين سـرجيوس وبعـض الزعماء الساسة لهذه الأحزاب، وربطت بالتـالى بين سـرجيوس وهذه الأحزاب، دون أن يعنى ذلك أية رابطة بين سـرجـيـوس وهذه الأحـزاب. ولعل العـلاقـة الوثيـقـة التى ربطت بين سرجيوس ومحمود فهمى النقراشى منذ ثورة ١٩١٩ خير دليل على ذلك.

كما يرتبط موقف سرجيوس من أحزاب الأقلية، بموقف هذه الأحزاب من الملك والوفد. حيث كان سرجيوس على ولاء تام ـ حتى يوليو ١٩٥٢ ـ للملك وكانت أحـزاب الأقليـة تستند ـ فى أغلب الأحيـان ـ على قـوة الملك فى إثبات وجـودها السياسى للوقوف فى وجه الوفد وشعبيته الكاسحة، كان من الطبيعى أن يميل سرجيوس أيضًا نحو هذه الأحزاب. وعلى الرغم من ذلك فعندما أراد سرجيوس ترشيح نفسه لعضوية مجلس النواب فى عام ١٩٤٩، رشح نفسه مستقلا. وربما يرجع ذلك إلى اعتزاز سرجيوس بذاته وإحساسه بأنه يمثل ظاهرة فريدة، هى أكبر من الأحزاب ذاتها.

وكانت أكبر العلاقـات فى هذا المجال هى علاقة سرجيوس بالهيئة السعدية بزعامة أحمد ماهر والنقراشى. ولا أدل على ذلك من مساندة سرجيوس لهم فى انتخابات عام ١٩٣٨. حيث شارك سرجيوس فى المؤتمرات الانتخابية للسعديين، وأحيانًا للأحرار الدستوريين نكاية فى الوفد. لكن إعجاب سرجيوس بالسعديين كان شديداً إلى الحد الذى دفعه إلى إهداء «خلعة الكهنوت» إلى أحمد ماهر زعيم الهيئة السعدية (١).

وقد أثار نشاط سرجيوس المتزايد لصالح السعديين فى انتخابات ١٩٣٨ حفيظة الوفد، الذى شن حملة شعواء على سرجيوس. إذا وصف مكرم عبيد القمص

---

(١) الوفد المصرى ٢٢/٣/١٩٣٨.

سرجيوس آنذاك بأنه «المعلم ملطى»، وهو الاسم الأصلى لسرجيوس، تذكيراً بقرار الحرمان الذى أصدرته الكنيسة من قبل على القمص سرجيوس، وبالتالى ليس لسرجيوس أن يحتفظ بخلعة وسر الكهنوت، بل هو شخص عادى. وزاد مكرم عبيد فى التقليل من شأن سرجيوس والحط من قدره حيث وصفه بأنه « طوافًا فى أذيال الماهريين»، يقصد بالماهريين الهيئة السعدية نسبة إلى زعيمهم أحمد ماهر الذى انفصل عن الوفد (١).

وحتى عندما اغتيل محمود فهمى النقراشى فى عام ١٩٤٩ شن سرجيوس حملة صحفية ساخنة مشيداً بصديقه النقراشى الذى رأى فيه أحد أهم رموز الوطنية المصرية منذ ثورة ١٩١٩ وحتى وفاته. وفى نبرة حزن شديدة ذكّر سرجيوس قراءه أن اغتيال النقراشى لم يأت على يد الإنجليز الأعداء الطبيعيين، والذى ناضل النقراشى طويلا للحصول علَى الاستقلال التام منهم وإنما جاء مصرع النقراشى على يد أبناء وطنه، ونتيجة عكسية للديمقراطية التى دافع عنها النقراشى كثيراً (٢).

سرجيوس ومصر الفتاة

ومن ناحية أخرى أقام سرجيوس علاقات وطيدة مع جماعة «مصر الفتاة» وزعيمها أحمد حسين. وربما دفع سرجيوس إلى ذلك عداء الجماعة للوفد، وولاؤها فى البداية على الأقل ـ للملك ـ من هنا يذكر سرجيوس إعجابه الشديد بشعار مصر الفتاة « الله. الوطن. الملك» وهى تقريبًا بعض المبادئ التى دعا إليها سرجيوس.

ولم يقتصر سرجيوس على مجرد الإعجاب بالجماعة فحسب وإنما شارك فى العديد من الندوات التى أقامتها الجماعة لتوعية الشباب. وفى واحدة من هذه الندوات، أشاد سرجيوس بروح الشباب التى وجدها فى صفوف أبناء الجماعة. ورأى سرجيوس أن هؤلاء الشباب قادرون بحماسهم على تغيير « الجو المشبع برطوبة الرجعية والأفكار العتيقة والاستبداد القاتل»(٣).

---

(١) الوفد المصرى ٩/ ٤/ ١٩٣٨.

(٢) منارة ٧/ ١/ ١٩٤٩.

(٣) المنارة ٢٢/ ٤/ ١٩٣٨.

والحق أن سرجيوس قد تأثر بحزب مصر الفتاة وروح الشباب النازعة إلى التمرد، وفكرة تكوين فرق الشباب، أو «أصحاب القمصان الخضراء» وتربيتهم تربية أشبه بالعسكرية. وهى فكرة مقتبسة آنذاك من تجربة الفاشية فى إيطاليا على يد موسولينى. وهى أيضًا الفكرة التى أثارت فزع الوفد فسارع إلى تكوين فرق الشباب، التى أطلق عليها « أصحاب القمصان الزرقاء. وهكذا عرفت مصر آنذاك ظاهرة أصحاب القمصان الملونة (١). وقد اقتبس سرجيوس هذه الفكرة وحاول استخدامها داخل الطائفة القبطية من خلال تكوين « فرق الشباب القبطى» فى عام ١٩٣٦. وهو ما سنتناوله بالتفصيل عند دراسة دور سرجيوس فى الإصلاح القبطى. ولكننا نعتقد أن إعجاب سرجيوس وتأييده لحزب مصر الفتاة سيتغير بعد ذلك، مع تحول الحزب ورئيسه إلى الاتجاه الإسلامى، مما أدى إلى خروج النفر القليل من الأقباط من أعضائه.

رجل الدين فى جعبة السياسيين

الدين والسياسة، ثنائية أساسية فى المجتمع المصرى. وربما كان هذا هو الباب الذى دخل منه سرجيوس إلى الحياة السياسية المصرية. وفى رأينا أن سرجيوس يعتبر نموذجًا جيدًا لدراسة دور رجل الدين فى السياسة.

فعلى المستوى الشعبى يحوز رجل الدين شعبية جارفة لاسيما فى فترات التحول فى المجتمع. وكما رأينا يرجع ذلك إلى قدرة وتمرس رجل الدين فى مخاطبة الجماهير، وأيضًا قابلية الجماهير للتأثر بشدة من رجل الدين، أكثر من رجل السياسة، ولكن فى فترات معينة.

لكن رجل الدين يفشل فشلا ذريعًا على مستوى الممارسات السياسية، والمناوشات الحزبية، من هنا يتسرب الإحباط إلى رجل الدين. فمن وجهة نظره هو « رجل» الشعب، بينما للساسة رأى آخر. إذ يلجأ الساسة غالبًا إلى « توظيف»

---

(١) عن هذه الظاهرة أنظر :
يونان لبيب رزق : أصحاب القمصان الملونة فى مصر ١٩٣٣ـ١٩٣٧، المجلة التاريخية المصرية، مجلد ٢١، سنة ١٩٧٤.

رجال الدين لخدمة أغراضهم. ومع زيادة كم الإحباط عند رجل الدين، يلجأ غالبًا - فى النموذج المصرى - إلى القصر الذى يستثمر «الوجاهة الدينية»، أو إلى أحزاب الأقلية، التى تستثمر « شعبية» رجل الدين فى مواجهة حزب الأغلبية. ولكن المشكلة أن رجل الدين - مسلم أو مسيحى - لديه إحساس عال « بالذات» من خلال تراثه التاريخى، ومكانته عند العامة. ألم يكن هو « المثقف» أيام الثقافة التقليدية، و «ملاذ» الشعب و«الوسيط» بين العامة والسلطة العسكرية، قبل «الحداثة» و«العلمانية». إذًا لعن الله « السياسة» و « ساس» ومن « يسوس»، والزعامة السياسية التى هى فى النهاية « زعامة علمانية».

لكن حركة الزمن ليست فى صالح رجل الدين، وإنما فى صالح رجل السياسة من هنا يزداد « الإحباط» لدى رجل الدين ويعقبه التخبط، ولا يبقى له فى النهاية إلا أن يستثمر «الساسة» دوره ومكانته، وعليه الرضا بذلك، أو أن يبحث له عن دور آخر.

* * *

الفصل الثالث

الإصلاح القبطى

لا يستطيع أحد أن يفهم الدور الذى لعبه القمص سرجيوس فيما أطلق عليه «الإصلاح القبطى» إلا بعد أن يلم بالمشكلات الحقيقية التى عانى منها الأقباط آنذاك، فضلا عن المستجدات الطارئة على الساحة القبطية لاسيما فى القرن التاسع عشر، الذى عرف بأنه قرن «التحديث» مع تحفظنا حول ماهية هذا المصطلح.

لكننا لا نستطيع أن نتكلم عن الإصلاح القبطى أو حتى عن الأقباط بصفة عامة دون الحديث عن التطور العام الذى شهدته مصر فى القرن التاسع عشر «قرن التحديث» فمن غير المنطقى الفصل بين الهم العام والهم الخاص. حيث تكاد تجمع آراء جل المؤرخين على أن القرن التاسع عشر كان بمثابة عصر النهضة لمصر نتيجة جهود محمد على وإسماعيل فى تحديث مصر وبناء الدولة الحديثة بها.

ومهما اختلفنا فى تقييم تجربة النهضة والتحديث فى عصرى محمد على وإسماعيل وطبيعة النتائج المترتبة عليهما، وهل هى تجربة تحديث أم تغريب، أو هى التى فتحت أبواب البلاد أمام الأجانب لتسقط مصر فريسة بعد ذلك فى أيدى الاحتلال البريطانى فإن الشىء المؤكد أن القرن التاسع عشر كان بمثابة العصر الذى صنع مصر المعاصرة، أى مصر القرن العشرين.

هذه المقدمة ضرورية ومهمة للدخول إلى محاولة قراءة عصر «النهضة والإصلاح القبطى». ففى رأينا تتشابه الظروف التى صنعت عصر «النهضة فى القرن التاسع عشر»، وعلى وجه الدقة تشابه دور الحافز الخارجى فى الحث على النهضة. فنحن لا ننكر دور وأهمية الباعث الداخلى الوطنى فى حدوث النهضة المصرية فى القرن التاسع عشر. لكننا نرى أن الدافع الخارجى كان له الباع الطويل

فى حدوثها. فالنهضة حدثت كاستجابة للتحدى الغربى الذى عرفته مصر فى نهاية القرن الثامن عشر على أيدى الحملة الفرنسية فى عام ١٧٩٨ ثم ازدياد التطلعات الغربية نحو مصر بعد ذلك.

وينطبق على الأقباط ما ينطبق على المجتمع المصرى بصفة عامة فقد وصلت الأوضاع القبطية عند مطلع القرن التاسع عشر إلى حالة يرثى لها من الناحية الدينية والثقافية. وأجمع المراقبون الأجانب على حالة الجهل التى سادت فى صفوف الأقباط بصفة عامة وفى داخل المؤسسة الكنسية على وجه الخصوص إذ عرف الأقباط آنذاك التحدى الغربى فى صورة حملات التبشير الغربى الكاثوليكى ثم البروتستانتى. واستطاعت هذه البعثات اجتذاب أعداد لا بأس بها من الأقباط لتخرج على كنيستها ومذهبها الأرثوذكسى وتنضم تحت لواء هذه البعثات. وهنا أحس الأقباط بمدى عظم الخطر الذى يتهددهم و يتهدد استقلال كنيستهم الأرثوذكسية. وأدرك الأقباط أن هذا الصراع وإن كان صراعًا دينيًا إلا أنه أيضًا صراعًا حضاريًا بين عالمين على مستوى متباين من الثقافة. وهو ما أدركته البعثات التبشيرية من قبل، فعملت على أن يكون سلاح الثقافة والتعليم بمثابة المفتاح الذى يفتح لها الأبواب الموصدة فى مصر. ولن نتحدث هنا عن عصر النهضة القبطية فى القرن التاسع عشر بالتفصيل (١)، وإنما سيقتصر حديثنا على بعض مظاهر هذه النهضة، التى ترتبط بسيرة القمص سرجيوس ودوره فى الإصلاح القبطى.

نشأة المدرسة الإكليركية

قدم الرحالة الغربيون والمبشرون الكاثوليك الذين وفدوا إلى مصر فى نهاية القرن الثامن عشر صورة درامية للغاية للحالة السيئة التى وصل إليها الوعى الثقافى واللاهوتى لدى رجال الدين الأقباط آنذاك. إذ رأى معظم هؤلاء أن الواعظ القبطى يلقى على مسامع رعيته عظات فى منتهى الضحالة الفكرية، أو يتفوه بما لا يدرك معانيه الحقيقية، ويلقى على مسامع رعيته محفوظات يرددها دون فهم لها ودون

(١) انظر عن ذلك رفيق حبيب ومحمد عفيفى : تاريخ الكنيسة القبطية ، القاهرة ١٩٩٤ .

تقديم تفسير وشرح لرعيته . أضف إلى ذلك انخراط بعض رجال الدين الأقباط فى ممارسة أمور الدجل والشعوذة (١) .

ومهما يكن من كم المبالغة فى التعليقات السابقة الصادرة من كاثوليك فى مواجهة أرثوذكسى ، إلا أن الواقع يوضح ضحالة المستوى الثقافى بل والدينى لدى رجال الدين الأقباط آنذاك . ويتعاظم حجم المشكلة إذا أدركنا أن رجال الدين آنذاك - بحكم ظروف العصر - كانوا بمثابة ألانتليجنسيا القبطية المفترض فيها رفع المستوى الدينى والثقافى للأقباط . لكن فاقد الشىء لا يعطيه . كما ساعد أسلوب الوعظ التقليدى عند رجال الدين الأقباط - بشكل غير مباشر - على نجاح المبشرين الأجانب فى تحويل الأقباط إلى الكاثوليكية والبروتستانتية .

من هنا فإن فكرة إنشاء المدرسة الإكليركية القبطية ما هى إلا استجابة للتحدى الغربى وإن جاءت متأخرة عن موعدها التاريخى كثيراً فمنذ القرن الثامن عشر حرص المبشرون الكاثوليك على صناعة أكليروس قبطى كاثوليكى محلى ، يتشرب النمط الثقافى الغربى والتعليم اللاهوتى ليساعد فى عملية تحويل الأقباط للكاثوليكية . حيث جاءت محاولات مجمع انتشار الإيمان فى روما لاستقبال بعثات دينية من الأقباط الكاثوليك وتخريج إكليروس (رجال دين) محلى (٢) .

ومما زاد من حرج الموقف ووضع الكنيسة القبطية الأرثوذكسية فى مأزق تاريخى ، النشاط التبشيرى البروتستانتى فى مصر والخطوة التى اتخذها فى عام ١٨٦٣ بإنشاء مدرسة لاهوتية إنجيلية فى مصر . وفى نفس العام افتتحت فصول لاهوتية مسائية غير منتظمة بهدف إعداد دعاة وطنيين . وتطورت هذه الخطوة تطوراً كبيراً بعد ذلك (٣) .

---

(١) GONZALES , le pere, voyage en Egypte, 1646-1647, le Caire, IFAO, 1973, vol ـ 1 , p 293 وأيضًا:

وأيضًا : Sicard, le pere, ouvrages, Tome II, le Caire, IFAO 1982 p, 59.

Clemment, R,les français d'Egypte aux XVII^e et XVIII^e siecle, le Caire, IFAO, 1960, p 247, 248.

(٢) بطرس سعد الله (الأب) : تاريخ الإكليروس للأقباط الكاثوليك ، المعادى ١٩٦٢ ، ص ٢ .

(٣) أديب نجيب سلامة : تاريخ الكنيسة الإنجيلية فى مصر ، القاهرة ١٩٨٢ ، ص ١٤٩ ، ١٦٧ .

وعلى الجانب الكاثوليكي عهد مجمع انتشار الإيمان إلى الآباء اليسوعيين (الجيزويت) في سوريا بتأسيس مدرسة إكليركية للأقباط الكاثوليك بمصر والقيام بإدارتها. وبالفعل أنشئت في عام ١٨٧٩ مدرسة إكليركية كاثوليكية في الموسكي، يتلقى فيها الطلبة دروسهم، ثم يرسلون بعد ذلك إلى مدرسة الآباء اليسوعيين في بيروت للاستزادة من دراسة الفلسفة واللاهوت [١]. وانتشرت بعد ذلك المدارس الإكليركية في جميع أنحاء مصر.

من هذا العرض السريع الذي قدمناه عن النشاط الكاثوليكي والبروتستانتي وإنشاء مدارس إكليركية ولاهوت، يتضح لنا أهمية وضرورة الخطوة التي اتخذتها الكنيسة القبطية وآزرتها البرجوازية القبطية بإنشاء المدرسة الإكليركية في عام ١٨٩٣[٢]، في محاولة لإنشاء أكليروس قبطي يتجاوب مع العصر واحتياجاته.

وتطورت المدرسة الإكليركية القبطية إلى حد ما في القرن العشرين. لكن يبدو أن هذا التطور لم يحقق الآمال المرجوة منها. حيث فاقت المدارس الإكليركية الكاثوليكية ومدارس اللاهوت الإنجيلية مثيلتها الأرثوذكسية. بل إذا نظرنا إلى المجتمع المصري ككل مسلمين وأقباط، فإن البعض يرى أن تطور التعليم الديني في الأزهر كان أسرع وأكثر انتظامًا بالمقارنة بحال المدرسة الإكليركية القبطية. ففي منتصف القرن العشرين يرى أحد مثقفي الأقباط أنه «كان ينبغي أن يساير رجال الدين العصر الجديد في تقدمه. فعمل مواطنونا المسلمون على تجديد نظام الأزهر الشريف تجديدًا شاملا حتى أصبح جامعة من أكبر الجامعات، وصار خريجوه أكفاء لملء مناصبهم. أما الأقباط فلم يوجهوا مثل هذه العناية إلى رجال الدين لسوء الحظ فلا يزال كثير منهم ينتخبون ممن لا حظ لهم من الثقافة» [٣]. لكن هذا لا ينفي أهمية دور المدرسة الإكليركية، وبصفة خاصة على يد حبيب جرجس. كما أن القمص سرجيوس نفسه ما هو إلا أحد الخريجين الأوائل لها. وفيها سيبدأ سرجيوس خطواته الأولى في تصوره نحو الإصلاح كما سنرى.

---

(١) رفيق حبيب، محمد عفيفي: تاريخ الكنيسة المصرية، ص ١٥٧، ١٥٨.

(٢) سليمان نسيم: الأقباط والتعليم في مصر الحديثة، منشورات أسقفية البحث العلمي والثقافة القبطية، القاهرة د ت، ص ٨٧، ٩٠.

(٣) هو توفيق العشاري مهندس قبطي خريج جامعات فرنسا، وعضو مجلس ملّي إسنا، انظر مصر ١٩٤٩/٢/٢٤.

نشأة المجلس الملى وصراعه مع الكنيسة

يرى البعض فى نشأة المجلس الملّى فى نهاية القرن التاسع عشر مظهرا من أهم مظاهر النهضة القبطية . إذ لم يصبح القرار فى أوساط الأقباط حكراً على الإكليروس (رجال الدين) وحدهم ، أو الكنيسة كمؤسسة دينية على وجه التحديد . حيث استطاع العلمانيون (الأقباط من غير رجال الدين) المشاركة فى صنع القرار . وأتاحت هذه المشاركة بمالهم من نفوذ فى الدولة وثقافة عالية ، قدرات هائلة لرعاية الشئون القبطية بما يتناسب مع معطيات القرن العشرين .

وقد رأى البعض أن هناك جذوراً بروتستانتية وراء فكرة إنشاء المجلس الملّى . وأن البابا كيرلس الخامس والعديد من الأقباط ، عارضوا المجلس الملّى ليس لكونه مظهراً من مظاهر الإصلاح ، بل لكونه بمثابة انتقاص من سلطة الكنيسة القبطية والإكليروس لصالح العلمانيين . فسيطرة « الشعب على الكنيسة هذه فكرة قريبة من البروتستانتية » . وبالتالى فنظام المجلس الملّى « نظام مبتدع أدخل عنوة على الكنيسة المصرية التى هى كنيسة كهنوتية تقليدية طقسية ، وليست كنيسة علمانية وضعية وعظية » (١) .

وفى رأينا أن دور العلمانيين فى إدارة الشئون القبطية ليس وليد القرن التاسع عشر ، بل يضرب بجذوره فى أعماق التاريخ القبطى ، قبل مجىء الفكر البروتستانتى إلى مصر ، فهناك مصطلح شهير فى التاريخ القبطى هو مصطلح «الأراخنة » ، و المقصود به « علية » الأقباط من غير رجال الدين . من هنا نرى أن الجذور التاريخية الحقيقية للمجلس الملّى تنبع من دور الأراخنة فى التاريخ القبطى . ولكى نفهم ذلك لن نبحر فى أعماق التاريخ القبطى ، بل سنضرب بعض الأمثلة حول هذا الدور فى القرون السابقة على نشأة المجلس الملّى . ففى القرن السابع عشر كان المعلم بشارة القبطى « كبير المباشرين » ، أى كبير جباة الضرائب ، من أهم

---

(١) انظر رأى إيريس المصرى فى نشأة المجلس الملّى .
إيريس المصرى : المرجع السابق ، جـ٥ ، القاهرة ١٩٨٤ ، ص ٢٤ـ٢٦ .

القوى المؤثرة على صناعة القرار فى الوسط القبطى. بل وتدخل المعلم بشارة فى عملية ترشيح البابا ذاته وعندما دخل فى صراع مع البابا حول صناعة القرار داخل المؤسسة الكنسية كان المعلم بشارة هو المنتصر بحكم صلاته بالدولة، حيث كان من كبار الموظفين.

ولعل أهم الأمثلة وأشهرها على دور الأراخنة فى التاريخ القبطى هو الدور الذى لعبه المعلم إبراهيم جوهرى فى نهاية القرن الثامن عشر. إذ لعب المعلم جوهرى دوراً مهمّاً كوسيط بين الدولة والكنيسة، بحكم كونه « كبير المباشرين » وقربه من المتنفذين. ولا أدل من نفوذ المعلم الجوهرى هو وأخيه جرجس أنهم تولوا الإشراف على أهم الأوقاف القبطية آنذاك، وهى المشكلة التى ستشهد صراعًا مريراً بين الكنيسة والمجلس الملِّى. كما لعب الأخوان جوهرى دوراً مهمّاً فى أثناء مفاوضات البابا يوحنا مع المبشرين الكاثوليك فى محاولة لتهدئة الأوضاع وتنظيم شئون الأقباط الأرثوذكس والكاثوليك بعد طول خصام (١).

يضاف إلى ذلك أن الأراخنة « التكنوقراط الأقباط كانوا يمثلون صفوة الأقباط وأثرياءهم، وبالتالى كانت الكنيسة فى حاجة إلى تبرعاتهم. كما لعبوا دوراً لا يستهان به فى نظام التكافل الاجتماعى الذى تميزت به الكنيسة القبطية على مر تاريخها. وبالتالى كان لابد أن يستثمر ذلك الدور بشكل أساسى فمن يقدم الأموال والخدمات لابد أن يشارك فى صناعة القرار.

وتثبت حوادث التاريخ أن أسوأ الفترات التاريخية التى تمر بها الكنيسة القبطية عندما تدخل فى صدام مع الأراخنة، فيؤدى هذا الصدام إلى تدخل الدولة فى صف التكنوقراط ضد الكنيسة، وتدخل الكنيسة فى دوامات لا تخرج منها إلا بالتصالح مع الأراخنة. وعلى العكس من ذلك تعيش الكنيسة القبطية أزهى عصورها فى حالات التفاهم بينها وبين الأراخنة، من حيث إمكانية العمل المشترك بينهما. ولعل خير مثال على ذلك علاقة الأخوين إبراهيم وجرجس جوهرى بالكنيسة وما عاد عليها من سلام وخير من جراء ذلك. على أية حال فإننا نرى أن نشأة المجلس الملِّى

(١) محمد عفيفى: الأقباط فى العصر العثمانى، القاهرة ١٩٩٢، ص ١٤٣ـ١٤٨.

لم تكن بالشيء الغريب على الحياة القبطية، فهى تطور طبيعى لدور الأراخنة فى الحياة العامة القبطية. ولما كان القرن التاسع عشر هو عصر النهضة وعصر المؤسسات وتأطير الجماعات المختلفة، أخذت حركة الأراخنة شكل المجلس الملِّى.

البدايات الأولى: الثورة من الداخل

يذكر سرجيوس أن أول خطواته نحو « الإصلاح » ـ وهو مصطلح نتحفظ عليه ـ قد بدأت من داخل الكنيسة نفسها وفى أثناء وجوده فى المدرسة الإكليركية. فقد ثار الطلبة على أوضاعهم المعيشية المتردية. وكانت القشة التى قسمت ظهر البعير آنذاك، قرار البطريركية بتخفيض «الجراية» المقررة للطلبة من رغيفين عيش ونصف إلى رغيفين فقط. ويذكرنا ذلك بهبات طلاب الأزهر ضد أى محاولة لتخفيض «الجراية» أو الانتقاص من أوضاعهم المعيشية. ولكن سرجيوس ذا الروح الثورية التواقة إلى التمرد، تزعم هؤلاء الطلبة، محولا مطالبهم من مجرد مطالب لتحسين أوضاعهم المعيشية فى الإقامة الداخلية للمدرسة، إلى مطالب أكثر عمومية لتعديل أوضاع المدرسة الإكليركية. أو على حد تعبير سرجيوس « من ثورة لأجل البطون إلى ثورة لأجل الإصلاح ».

ويروى سرجيوس كيف اعتصم هو وطلبة الإكليركية فى الدار البطريركية، رافعين عدة مطالب منها :

١ـ إنشاء قسم داخلى كامل فى مهمشة ليوفر على الطلبة المتاعب.

٢ـ تعيين المدرسين المخصصين لتعليم الدين والعلوم الإنسانية وغيرها.

٣ـ الاهتمام بشئون الطلبة ورعايتهم.

٤ـ رعاية مستقبل خريجى المدرسة الإكليركية.

وهى كما نرى مطالب مهمة وعادلة وترتبط بالبدايات الأولى للمدرسة الإكليركية، لكن البطريرك كيرلس الخامس كان خارجًا من معركة حامية الوطيس مع العلمانيين الأقباط وعلى رأسهم بطرس باشا غالى. وهى المعركة الشهيرة التى على أثرها طلب بطرس غالى تدخل الدولة فى هذا النزاع فأصدرت الأمر الشهير

بالتحفظ على البطريرك وإبعاده إلى الدير، على أن تدير شئون البطريركية لجنة خاصة، وهو الأمر الذى اعتُبر انتصاراً للعلمانيين الأقباط. إلا أن البطريرك عاد إلى كرسيه مرة أخرى فى ٤ فبراير عام ١٨٩٣ (١). وقد ازدادت خبرته من هذه التجربة حيث زادته صلابة فى الوقوف فى وجه التغيير.

من هنا سيأتى موقف البطريرك فى مطلع القرن العشرين عنيفًا فى مواجهة اعتراضات طلبة الإكليريكية. حيث رفض مطالب الطلبة وقام بفض اعتصام الطلبة من الدار البطريركية، وطلب سرجيوس تدخل بطرس باشا غالى - صاحب الموقف السابق من البطريرك - وبالفعل وقف بطرس باشا غالى فى صف الطلبة. وفتح أبواب جمعية التوفيق القبطية لاستقبال ورعاية الطلبة.

وأثار الموقف السابق البطريرك، لاسيما مع تسرب أخبار هذه الخلافات إلى الصحف. وعلى ذلك اتخذت البطريركية موقفًا عنيفًا من هؤلاء الطلبة لإجبارهم على إنهاء التمرد، والعودة إلى المدرسة الإكليريكية إذ هدد البطريرك باستخدام سلطته فى إصدار « الحرمان » على الطلبة، فضلا عن آبائهم. ولما كان معظم هؤلاء الآباء من رجال الدين، فمعنى ذلك تجريد الآباء أيضًا من « الكهنوت » وبالفعل خاف الطلبة من ذلك وتم تهدئة الأمور بين الطلبة والبطريركية. إلا أن هذه النهاية لم ترض سرجيوس وروحه التواقة إلى الثورة حتى فى داخل مؤسسة دينية محافظة مثل الكنيسة البطريركية. من هنا جاء التعليق الدرامى لسرجيوس على هذه النهاية «رأيت الطلاب يثورون فى وجهى كما ثار بنو إسرائيل فى وجه موسى وطلبوا إلى أن أعود بهم إلى قواعدهم. فاضطررنا إلى النكوص على أعقابنا قانعين من الغنيمة بالإياب» (٢).

تلك كانت البدايات الأولى لسياسة سرجيوس الرامية إلى التغيير من الداخل. وهى بدايات تدعوا إلى الإعجاب. حيث تتوافر الروح المتمردة عند شاب صغير. فى مثل سنه. ولكن هذا الأمر يتفق مع روح العصر. إذ علينا أن نتذكر مصطفى كامل المعاصر لسرجيوس فى تلك الفترة. وكيف توافرت لدى هذا

---

(١) طارق البشرى : المرجع السابق ص ٣٩٨-٤٠٠ .

(٢) انظر تفاصيل ذلك فى : بولس باسيلى : المرجع السابق ص ١٤٣ - ١٤٤ .

الشاب الصغير روح الثورة، وكيف قدم العصر نفسه الإمكانية على بروز هذه الروح . على أية حال فإن روح سرجيوس الرامية إلى التمرد والتغيير لم تهدأ إذا عثرنا فى كشاف المطبوعات العربية على كتاب باسم أحمد عبداللطيف، تحت عنوان نتيجة بدفاع القمص سرجيوس ضد بعض أعضاء المجلس الملّى . وصدر الكتاب فى ٥٥ صفحة عام ١٩١٠ . وللأسف لم نعثر على الكتاب . كما لم يتحدث سرجيوس نفسه أو أى مصدر آخر كتب عنه عن ظروف هذه القضية . على أية حال فإن هذا المطبوع السابق يدل على استمرار سرجيوس على إعلان تمرده على الأوضاع القبطية السائدة آنذاك، بشكل راديكالى، حتى مع صغر سنه، إذ كان يبلغ آنذاك ٢٧ عامًا .

وفى عام ١٩١٢ انتقل سرجيوس للخدمة فى السودان واستقر فى الخرطوم حيث لاقى ترحيبًا كبيراً . وفى الخرطوم وفى عام ١٩١٢ أصدر سرجيوس مجلته « المنارة المرقسية » لتكون لسان حاله، وينشر من خلالها آراءه ومعتقداته . ووضح من أول عدد من أعداد المنارة أن سرجيوس يسبح ضد التيار إذ أعلن أن هدفه من وراء إصدار المنارة « انتقاد أمورنا الداخلية وتقويم الاعوجاج الذى تأصل فينا كأمة وككنيسة » . وبطبيعة الحال فإن الآراء السابقة لن تجد قبولا لدى البطريرك . لكنها لم تعدم قبولا من بعض المطارنة الذين وقفوا بجانب سرجيوس أمام البطريرك مثل الأنبا مكاريوس مطران أسيوط (البابا مكاريوس بعد ذلك) والأنبا إبرام مطران الفيوم . مما يوضح لنا أن الإكليروس القبطى لم يكن جبهة واحدة، وإنما يزخر دائمًا باتجاهات عديدة، ربما تصل لحد المعارضة الشديدة .

وكتب سرجيوس فى المنارة مقالات نارية حول انتشار السيمونية فى الكنيسة القبطية، أى شراء الوظائف بالأموال، كما انتقد سلوك بعض المطارنة الأقباط . وانتقد بعض الأقباط الموالين للبطريرك فى السودان ما قام به سرجيوس وأرسلوا شكاوى عديدة ضد القمص سرجيوس إلى البطريرك فى القاهرة فقدم القمص سرجيوس إلى المحاكمة أمام مجلس إكليركى . وتصاعدت حدة الأمور، لاسيما مع مساندة بعض المطارنة، وبعض الشخصيات العلمانية القبطية مثل مرقس باشا سميكة لسرجيوس . وتم تدارك الأمر والصفح عن سرجيوس حيث عاد مرة أخرى

إلى السودان. لكنه سرعان ما غادرها فى عام ١٩١٥ تنفيذاً لأوامر السلطة الإنجليزية فى أثناء الحرب العالمية الأولى (١).

وعاد سرجيوس إلى بلدته جرجا ليبقى بها إلى عام ١٩١٧، حين جاء إلى القاهرة ليقيم بها حتى نهاية حياته. ويرجع سرجيوس سر انتقاله من بلدته جرجا إلى القاهرة بحاجة أولاده للتعليم فى المدارس فى القاهرة. ولكننا نرى أن روح سرجيوس النازعة إلى الحركة والتمرد لم تكن تقبل أن تظل قابعة فى جرجا فى أقصى الصعيد، وتترك القاهرة التى سيلمع بها نجم سرجيوس بعد ذلك. ولا أدل على ذلك من بداية سرجيوس إقامته فى القاهرة بالوعظ فى جمعية قبطية فى القللى والدعوة إلى جمع التبرعات لإنشاء كنيسة جديدة لتكون منبراً يقف عليه سرجيوس وينشر من خلاله أفكاره. وبطبيعة الحال فإن اختيار القللى نقطة بداية لنشاط سرجيوس وإقامته لم يأت من فراغ. فالقللى من الأحياء التى يوجد بها نسبة لا بأس بها من الأقباط. كما أنه قريبٌ جداً من حى شبرا الآخذ فى التوسع والازدهار، والذى أصبح المأوى الطبيعى لصغار الموظفين الأقباط لاسيما العاملين فى السكك الحديدية والبريد وهى أماكن تركز صغار الموظفين الأقباط. كما أنه ليس بعيداً عن «محطة مصر» التى يصب من خلالها موجات هجرة الأقباط من الصعيد إلى القاهرة. كما أن القللى ليس بعيداً عن « الدار البطريركية » فى كلوت بك.

وعارضت البطريركية فى إنشاء سرجيوس لكنيسته فى القللى، وأرسلت احتجاجًا بذلك إلى نظارة الداخلية. و تصاعدت حدة الأمور بين البطريريك وسرجيوس. وتدخل الأنبا لوكاس مطران قنا للصلح بين سرجيوس والبطريركية.

من ناحية أخرى مر بنا الدور الذى لعبه سرجيوس فى ثورة ١٩١٩ والذى أدى به إلى الاعتقال. وكما ذكرنا سابقًا احتجت الكنيسة القبطية بشدة على اعتقال سرجيوس. حيث أرسل البطريرك كيرلس الخامس رسالة إلى «السلطان» أحمد فؤاد طالبًا منه التدخل للإفراج عن القمص سرجيوس. ولم يكن موقف الكنيسة هنا دفاعًا عن سرجيوس فى حد ذاته بقدر ما كان دفاعًا عن الوطن وعن «حرمة الكهنوت».

---

(١) المصور ١٦/ ٤/ ١٩٥٤، وأيضًا خليل نسيم : المرجع السابق ص ١٠ .

وما أن يأتى عام ١٩٢٠ حتى يعود الخلاف الحاد بين سرجيوس والبطريركية فبعد خروج سرجيوس من المعتقل، ومع عودة الهدوء النسبى للحركة الوطنية. وجه سرجيوس جهوده مرة أخرى نحو « إصلاح » الطائفة القبطية، وتحالف سرجيوس مع جمعية التوفيق القبطية أحد أهم معاقل المعارضة العلمانية لسلطة الكهنوت. حيث ألقى فى أول يوليو ١٩٢٠ محاضرة فى الجمعية عرض فيها لبعض أفكاره الجريئة و التى تمثل « خروجًا » على التقاليد الأرثوذكسية للكنيسة القبطية، لكنها فى رأيه إصلاحٌ للخلل الذى وصلت إليه الكنيسة. حيث أجاز سرجيوس زواج المطارنة مخالفًا بذلك لتراث طويل من حرص الكنيسة على رسامة المطارنة من الرهبان المتبتلين. كما صرح سرجيوس بأن الرهبان لا يصلحون لتولى منصب البطريرك « البابا » وبالتالى فتح الباب أمام غير الرهبان لتولى هذا المنصب. كما تطرق سرجيوس إلى شخصية البابا كيرلس الخامس، الذى طعن فى السن آنذاك ولم يعد قادراً على إدارة شئون البطريركية. فطالب سرجيوس تعيين نائب بطريركى لإدارة شئون الكنيسة القبطية (١).

وتعقدت الأمور بين البطريركية وسرجيوس. إذ تم «حرمان» سرجيوس وتجريده من « الكهنوت » حيث عاد سرجيوس إلى اسمه الأصلى «ملطى سرجيوس » وأصدر البطريرك أوامره بالاستيلاء على كنيسة القللى لصالح الكنيسة القبطية إذ لم يعد سرجيوس بعد تجريده من الكهنوت صالحًا للوعظ. لكن سرجيوس لم يرض بذلك ولم يعترف بقرارات البطريركية، لاسيما وأن بعض المطارنة المعارضين للبطريرك كانوا وراءه. وطلبت البطريركية تدخل السلطات الحكومية والبوليس لتنفيذ أوامرها وإبعاد سرجيوس عن الكنيسة. واستعدى سرجيوس الحكومة على الكنيسة، وتبادل الطرفين إرسال برقيات نارية إلى الحكومة، وترددت الحكومة فى التدخل فى هذا النزاع. إلا أن هذا التردد أثار أنصار البطريرك فأرسلوا برقيات شديدة اللهجة إلى السلطان أحمد فؤاد فى عام ١٩٢١. حيث أعلن هؤلاء أن «الطائفة القبطية تقدم استياءها الشديد وتحتج لعدم تنفيذ أحكام المجلس الملِّى العام بخصوص ملطى سرجيوس المحروم وتسليم الكنيسة للبطريركخانة وتطالب العدالة

(١) المصور ٢٥/ ٧/ ١٩٥٢، حديث مع القمص سرجيوس.

باحترام حقوقها المقدسة » ورأى البعض الآخر أن « مساعدة الحكومة له (سرجيوس) بدون مسوغ أهاج عواطفنا وكدر خواطرنا . فنحتج بشدة على ذلك ونرجو تدارك الأمر وتنفيذ الأحكام»[1] . وأرسل سرجيوس بدوره برقيات إلى الحكومة يطلب تدخلها . كما أرسل مناصريه من الأقباط برقيات مماثلة . إلا أن أنصار البطريرك ردوا على هذه البرقيات بأن القمص سرجيوس هو الذى يرسلها بأسماء مصطنعة [2] . ووصل الأمر بين الفريقين إلى حد المشاجرات على أبواب كنيسة القللى للاستيلاء عليها ، وتدخل البوليس لفض هذه المشاجرات . وتدخلت السلطات الإنجليزية فى هذا الأمر . وانتهى النزاع بإخراج القمص سرجيوس من كنيسة القللى وضمها إلى البطريركية [3] .

وفى رأينا أن الخلافات السابقة وإن كان فيها بعض جوانب «تحديث » الكنيسة القبطية ، إلا أنها اتسمت بطابع النزاع الشخصى بين سرجيوس والبطريرك . وأدت إلى إضافة الكثير من الانقسامات فى داخل الطائفة القبطية . كما أظهرت مسألة فى غاية الأهمية وهى أن الخلافات القبطية هى التى تؤدى إلى تورط الدولة فى المسألة الطائفية . لكن تدخل الدولة فى هذه الخلافات لا يأتى فى صالح الحكومة . لأن كل طرف ينظر إلى تدخل الحكومة على أنه «اضطهاد» . وفى كل الأحوال تعتبر الدولة هى الخاسرة .

ولكن هناك وجهة نظر أخرى مثالية إلى حد ما . حيث تنظر إلى الأقباط بكونهم مواطنين . وفى حالة نشوب أى نزاع بين المواطنين ، يلجأ هؤلاء إلى الدولة . فلماذا ننكر ذلك على الأقباط ؟ وهناك وجهة نظر أخرى أكثر محافظة ترى أنه مشاكل «الطائفة » القبطية يجب أن تحل داخل « البيت » . وعدم التعرض بالنقد للكنيسة لأنها « الأم » بالنسبة للأقباط أو أنها «مؤسسة» ، ولابد من احترام المؤسسات .

---

(١) دار الوثائق القومية ، مَحافظ عابدين ، محفظة ٥٤٥ التماسات أقباط ، تلغراف إلى الديوان السلطانى ، رقم ١٤٥٣ من كهنة وشعب طوخ النصارى ، ٧ سبتمبر ١٩٢١م . وأيضًا تلغراف سلطانى ١٤٩١ من أقباط سمادون ١٦ سبتمبر ١٩٢١م .

(٢) المصدر السابق تلغراف ١٤٠٥ ، ٥ سبتمبر ١٩٢١م .

(٣) عن أحداث هذه الفترة انظر الكتاب المهم للشماس شاكر المعصرانى : صوت الحق فى قضية القمص سرجيوس ، إصدار لجنة كنيسة القللى ، د . ت .

الحرمان « الخروج الكبير »

على أية حال خرج سرجيوس محرومًا كنسيًا فاقدًا لكنيسة القللى التى بناها من التبرعات الخاصة بمريديه، لكنه أصبح أكثر راديكالية عن ذى قبل؛ حيث خرج بشدة على تقاليد الكنيسة القبطية واستأجر فناء كبيراً فى الفجالة وحوله إلى كنيسة ومنبر لعظاته النارية، وأصبح القمص سرجيوس ملاذاً لمعارضى البطريرك كيرلس الخامس، فعندما أعلن بعض رهبان دير الأنبا أنطونيوس العصيان على البابا رد البطريرك على ذلك بإصدار الحرمان عليهم؛ فالتجأ هؤلاء إلى سرجيوس حيث جمعهم جميعًا العداء للبطريرك والمعاناة من الحرمان الكنسى. إلا أن البابا سرعان ما أصدر لهم قرار الحل وعادوا إلى الكنيسة من جديد (١)، وللدلالة على أهمية وحيوية حركة العصيان السابقة، وأهمية سرجيوس كرمز للمعارضة الكنسية، أن اثنين من الرهبان السابقين أصبحوا فيما بعد مطارنة.

وفى عام ١٩٢٩ تم رسامة الأنبا يؤانس التاسع عشر بطريركًا للأقباط حيث استمر فى الكرسى البطريركى حتى عام ١٩٤٢، ولم يتوقف سرجيوس عن المعارضة فى فترة هذا البطريرك، إذ عاود سرجيوس فى عام ١٩٣٠ إصدار مجلته «المنارة» مرة أخرى من القاهرة بعد أن أصدرها من قبل من الخرطوم؛ حيث أصبحت المنارة منذ ذلك الوقت بحق من أهم رموز الصحافة القبطية (٢)، وكان سرجيوس يصدر مجلته يوم السبت لكى تكون فى أيدى الناس قبل ذهابهم إلى الصلاة فى الكنائس فى يوم الأحد، وبالتالى يصبح تأثيرها أكبر من تأثير عظة الأحد فى الكنائس، واعتمدت المنارة فى توزيعها على الاشتراكات من القارئين فضلا عن الإعلانات (٣). ويروى بعض تلاميذ سرجيوس أن بعض محبيه من الموظفين الأقباط كانوا بمثابة مندوبين له، يقومون بجمع الاشتراكات وتوزيع المجلة، كما

---

(١) الأسقف إيسيذورس : الخريدة النفيسة فى تاريخ الكنيسة، حـ٢، دت ص٥١٦

(٢) Carter, B.L The copts in Egyptian politics, London 1986, p 43 -47

(٣) كانت المنارة تعتمد على الإعلانات ومنها على سبيل المثال إعلانات لشركة مصر للغزل والنسيج بالمحلة الكبرى، وإعلانات عن بعض الكتب، وعن مزادات وبيع أراضى، وعن بعض الفنادق لاسيما فنادق الأقصر وأسوان فى فترة الشتاء، انظر أعداد المنارة على سبيل المثال أعداد فبراير ١٩٣٨ .

شجع بعض المطارنة الأقباط رعاياهم على شراء المنارة، وحظيت المجلة بانتشار لا بأس به فى صفوف الكاثوليك والبروتستانت، نظراً للعلاقة الجيدة التى ربطت سرجيوس بالزعامات الدينية لهذه الطوائف، إلى جانب النظر إلى سرجيوس على أنه « مصلح » الكنيسة القبطية. لكن المجلة عانت الكثير من المتاعب المالية فى فترة الحرب العالمية الثانية نتيجة ارتفاع أسعار الورق، ودفع هذا سرجيوس إلى تخفيض عدد صفحات المجلة لأنه كان يضطر إلى شراء الورق من السوق السوداء، ونتيجة لشهرة المنارة وانتشارها فى أوساط الأقباط دخلت فى صراع وفى حملات منافسة شديدة مع الصحافة القبطية الأخرى ولاسيما جريدة «مصر» التى كانت ترى فى نفسها الصحيفة القبطية الأولى.

وعلى صفحات المنارة تصاعدت حدة الخلافات بين سرجيوس والبطريرك يؤانس؛ حيث طلب سرجيوس من وزير الأوقاف التدخل لحل مشكلة الصراع بين البطريرك والمجلس الملّى على إدارة الأوقاف القبطية، وعرض المشكلة على البرلمان[1]. ومن الطريف أن سرجيوس أطلق آنذاك - ١٩٣٠ - على مريديه «الحزب الكنسى القبطى» وقدر عددهم بثمانمائة عضو، حيث أرسل هذا « الحزب » فى فبراير ١٩٣٠ برقية إلى الملك فؤاد طالبًا منه التدخل لإصلاح أحوال الأقباط، واتهم سرجيوس البابا يؤانس بأنه وقف فى وجه المجلس الملّى وشل حركته، وأنه كان سببًا فى ازدياد هوة القطيعة بين الكنيسة القبطية وأثيوبيا لتعيينه مطرانًا لا يليق بهذا المنصب، فضلا عن عدم وقوف البابا يؤانس فى مواجهة محاولات الكاثوليك لقطع أثيوبيا عن الكنيسة القبطية، وطلب سرجيوس من الملك فؤاد التدخل الدبلوماسى فى الحبشة للعمل على استمرار العلاقة التاريخية بين الكنيسة القبطية وأثيوبيا. كما طلب منه التدخل للحد من سلطات البابا يؤانس الذى وصفه بأنه «حار الشعب فى أمره كأنه لم يقم لرعاية الكنيسة بل لتفكيكها وهدمها » [2].

وحاول سرجيوس فى عام ١٩٣١ الترشيح لعضوية المجلس الملّى، لكى يقوم

---

(١) عن تلك المشكلة انظر : طارق البشرى المرجع السابق، ص ٤٣٨، ٤٤٠، وعن مطالبة القمص سرجيوس لوزير الأوقاف انظر : المنارة ٨/ ٢/ ١٩٣٠ .

(٢) المنارة المرقسية، ٨/ ٢/ ١٩٣٠ .

بالتغيير من الداخل، لكن المجلس الملّى رفض ترشيح سرجيوس وشطب اسمه. وأرجع ذلك إلى أنه «محروم» كنسيًا. ودفع ذلك سرجيوس إلى مهاجمة المجلس واعتبرهم غير معبرين عن الأقباط، وأنهم أهدروا المزايا العديدة التى تمنحها لهم لائحة المجلس الملّى الصادرة فى عام ١٨٨٣، وأن هذا التهاون فى صالح السلطة الكهنوتية، وطالب سرجيوس أعضاء المجلس الملّى بالاستقالة (١)، وهكذا دخل سرجيوس فى عداء مع الكنيسة والمجلس الملّى معًا.

المجاهد والمهادن

كان سرجيوس بحكم شخصيته وخبرته الطويلة فى الميدان الوطنى والطائفى يجيد فن التنقل من دور المجاهد إلى المهادن. ولعل هذه الخاصية هى التى ساعدته على الاستمرارية دون أن ينكسر أو ينتهى أو يتهاون، فهناك مساحة كبيرة بين التهادن والتهاون، إذ تصالح سرجيوس مع البابا يؤانس، ووفقًا لمصادر البطريركية - وهو ما نفاه سرجيوس - أرسل سرجيوس فى عام ١٩٣٥ الشفعاء إلى البابا يطلب الصفح، ورفع الحرم الكنسى عنه. وتعهد سرجيوس بوقف حملاته الشديدة ضد البطريركية، وهى الحملات التى وصفها وكيل البطريركية بأنها «نهش الأعراض والطعن فى كرامات الناس»، وبناء على ذلك وترضية القمص سرجيوس رفع الحرم الروحى للذين يريدون اعتناق الدين الإسلامى من الأقباط، أى يريدون التحول من مذهب إلى آخر غير المذهب الأرثوذكس، وهى وظيفة لها تاريخ وطالبت بها البطريركية واعترفت بها وزارة الداخلية فى محاولة لاحتواء الأزمات التى تحدث من التحول فى الدين، وكان الهدف من إسناد هذه الوظيفة إلى سرجيوس، أولا احتواؤه من جانب البطريركية لاسيما إتقان الوعظ والقدرة على الإقناع يعتبر مناسبًا لهذه الوظيفة (٢).

ومع اتقان سرجيوس لمسألة المجاهد والمهادن، إلا أن طبيعة المجاهد غالبة عليه، من هنا سرعان ما عاد سرجيوس إلى سيرته الأولى، وعادت المنارة إلى انتقاد

(١) المنارة المرقسية، ١٧/ ١/ ١٩٣١.
(٢) المنارة ٢٢/ ١/ ١٩٣٧.

الأوضاع القبطية، مهاجمة المجلس الملّى الذى كان آنذاك مستأنسًا من قبل البابا، فضلا عن مهاجمة تصرفات بعض المطارنة، وعلى هذا أصدرت البطريركية بيانًا بـ«تجريد وفرز القمص سرجيوس» فى ١٥ مايو ١٩٣٦، وعاد سرجيوس مرة أخرى محرومًا مجردًا من «سر الكهنوت»، ودعت البطريركية الأقباط إلى «أن لا يخالطوا هذا الشخص عملا بالنصوص الكتابية، ولا يطالعوا مجلته البذيئة لما فيها مما يخدش وجه الفضيلة والآداب»، ودفع ذلك سرجيوس إلى الحدة فى مواجهة الكنيسة، حيث رفع دعوى جنح ضد البطريركية (١)، وتدخل الوسطاء من جديد للصلح بين البابا وسرجيوس. وبالفعل أصدر البابا قراره بالعفو عن سرجيوس، كما أعاده من جديد فى عام ١٩٣٧ إلى كنيسته فى القللى بعد ما أمضى حوالى ١٦ سنة بعيدًا عنها (٢).

جماعة الشباب القبطى

وفى تلك الأثناء ـ فى عام ١٩٣٦ ـ أعلن القمص سرجيوس عن تشكيل «فرق الشباب القبطى»، وربما يعتبر البعض هذه الخطوة إحدى «شطحات» سرجيوس، إلا أننا نعتبرها أحد «أحلامه الكبيرة» التى لا تتفق مع الواقع، وقد اقتبس سرجيوس هذه الفكرة على ما يبدو من جماعة مصر الفتاة التى تأثرت بالفكر الفاشيستى الإيطالى بزعامة موسولينى، وأن الإصلاح يأتى على يد الشباب. يؤيد هذا الترجيح أن سرجيوس كان على علاقة وثيقة بأحمد حسين وجماعة مصر الفتاة، بل واشترك فى بعض ندوات الجماعة كما مر بنا.

على أية حال أعلن سرجيوس فى يونيو ١٩٣٦ عن تكوين «فرق الشباب القبطى» تحت رئاسته بالطبع، وكان السكرتير العام هو ابنه وليم سرجيوس، ويتضح الطابع الكاريزمى هنا من خلال تنصيب سرجيوس نفسه رئيسًا للفرق لأنه كما أعلن هو «زعيم الإصلاح»، وأن الإصلاح يأتى على أيدى هؤلاء الشباب،

---

(١) المنارة ٣/ ٧/ ١٩٣٦.

(٢) خليل نسيم: المرجع السابق ص١٩، ٢٠.
القس إبراهيم عبدالسيد: المرجع السابق ص١٦.

ويتضح أيضًا الطابع العائلى لهذه الفرق إذ أن الرجل الثانى هو نجله الكبير، وكانت أهم مبادئ هذه الفرق غرس المبادئ المسيحية فى الشباب، تكوين الروح الرياضية وحياة الرجولة الكاملة والاعتماد على النفس مع الإيمان بالله، تهيئة الشباب للكفاح الأدبى ضد الرذيلة والرجعية والخرافات ليؤدى واجبه نحو قومه ودينه، إعداد الشبان للقيام بدعاية واسعة النطاق للإصلاح والتجديد، وهى مبادئ لا تخرج كثيراً عن أهداف جماعات الشباب الأخرى مثل أصحاب القمصان الزرقاء والخضراء، أو حتى جماعة الإخوان المسلمين فى مرحلة مبكرة من وجودها، ويلاحظ فى جميع هذه التنظيمات بما فيها فرق الشباب القبطى الاهتمام الشديد بالرياضة؛ حيث عمل سرجيوس على إنشاء لجنة للتدريب الرياضى، كما هدف إلى البحث عن نادى لتدريب فرق الشباب القبطى، وقد يرى البعض أن هذا الأمر مقبول ويتفق مع طبيعة الشباب والمرحلة العمرية التى يمرون بها وأهمية الرياضة فى تكوين أجسامهم وامتصاص طاقاتهم، وإبعادهم عن الرذيلة، لكننا نرى أن معظم الجماعات التى بدأت بذلك انتهت إلى العنف، إلا أنه مما يقلل من هذا الاحتمال أن الأقباط بصفة عامة أقلية مسالمة.

وكان التنظيم المقترح من سرجيوس لهذه الفرق أن كل عشرة من هؤلاء الشبان يكونون وحدة لها رئيس وسكرتير، وكل ثلاث وحدات تكون شعبة لها ضابط، وكل ثلاث شعب تكون فرقة لها قائد، وفى النهاية يتولى مجلس القيادة العامة الإشراف على شئون الفرق [(١)]، وهذا التنظيم كما نرى يتماشى مع النزعة الفاشستية التى كانت سائدة فى أوساط الشباب المصرى آنذاك.

إلا أن هذا التنظيم كان بمثابة « حلم » لا يتماشى مع الواقع، إذ سرعان ما توارت أخبار هذا التنظيم، ولم نعد نسمع عنه شيئًا ؛ لأنه من ناحية قد يتماشى مع الأغلبية المسلمة، ولكنه لا يتفق مع أقلية محافظة ومتوجسة مثل الأقلية القبطية، أضف إلى ذلك أن سرجيوس نفسه كان يمثل الأقلية المعارضة داخل الأقلية القبطية، وبالتالى لا ننتظر استجابة واسعة فى صفوف الأقباط لهذه الفكرة، وأخيراً يبدو أن سرجيوس نفسه قد أعرض عن الفكرة لاسيما بعد تصالحه مع البابا

---

(١) انظر إعلان تنظيم الفرق فى المنارة ١٢/٦/١٩٣٦ .

يؤانس، واستعادته لكنيسة القللي في عام ١٩٣٧ .

لكن القمص سرجيوس سيعاود الاستعانة بسلاح استخدام الشباب في الصراعات الكنسية من جديد في عام ١٩٥٢ ، فعلى إثر قيام ثورة ١٩٥٢ ، والتي قام بها « شباب الضباط » ، وفي أثناء خلاف سرجيوس مع البابا يوساب، أعلن سرجيوس أن « الشباب يتطوع للتطهير قبل أن نطلبهم للتجنيد » وهو عنوان مثير شرح تحته أنه تلقى عدة رسائل من الشباب القبطي في الإسكندرية والقاهرة والأقاليم كما قابل الكثير منهم، حيث أعلن هؤلاء تطوعهم للقيام بعملية «تطهير» في الدار البطريركة نزولا على أمر القائد العام محمد نجيب الذي وجه النداء إلى الهيئات والأحزاب لتطهر نفسها من الداخل، وأعلن سرجيوس ترحيبه بهؤلاء الشباب، وطلب منهم الاستعداد للقيام بهذه الحركة إذا لم يستجب البطريرك لطلبات سرجيوس في المهلة التي حددها له وهي خمسة عشر يومًا (١) .

وإذا كان سرجيوس قد استعان في عدائه مع الكنيسة، فإن الأخيرة نفسها استعانت بالشباب للوقوف في وجه مناوئيها واحتواء الشباب القبطي ، فوفقًا لرواية إبراهيم هلال (٢) زعيم جماعة « الأمة القبطية » ، قامت الجماعة بتأييد من البابا يوساب، بل قدم البابا لها الأموال اللازمة، ولكن الجماعة ستنقلب عليه في مرحلة لاحقة، وهكذا فتح الباب أمام قيام أشكال من «التنظيم» للشباب القبطي لاستخدامه في الصراعات القبطية آنذاك، فضلا عن تغذية البعد الطائفي لديه .

المجاهد وكيلا للبطريركية

عاني المجاهد طويلا من جراء ما يؤمن به من أنه « جهاد »، بينما يراه الآخرون خروجًا على « الطاعة » و«عصيان »، لذلك حرم سرجيوس طويلا من « البركة » حيث على ابن الطاعة تحل البركة، لكن الجهاد « موقف » له من المؤيدين مثلما له من معارضين، كما أن شخصية «المجاهد» يمكن توظيفها في الصراعات لخدمة أحد

---

(١) المنارة ١٦/٨/١٩٥٢ .

(٢) حديث شخصي مع الدكتور/ إبراهيم هلال .

الأطراف. أضف إلى ذلك أن المجاهد نفسه بعد طول جهاد يشتاق إلى « منصب » أو « منبر » رسمى لكى يطبق من خلاله أفكاره، بعدما عانى فى سبيل ذلك من خلال قنوات غير رسمية.

تلاقت كل هذه العوامل واتحدت من أجل أن يتولى سرجيوس « المجاهد » أو على أقل تقدير « المعارض » لوظيفة وكيل البطريركية. وهى وظيفة لها دورها المهم فى الديوان البطريركى، كما أن سرجيوس نفسه سيضيف لها أبعادًا جديدة. ويعلل سرجيوس توليه هذا المنصب بوقوفه إلى جانب الأنبا مكاريوس مطران أسيوط ضد الأنبا يوساب مطران جرجا عند الترشيح للكرسى البطريركى فى عام ١٩٤٤ وبالتالى كان طبيعيًا أن يتولى سرجيوس منصب وكيل البطريركية بعد نجاح الأنبا مكاريوس [١]، ويتساءل البعض عن السر وراء تعيين البطريركية لشخصيات دينية «إديكالية » فى منصب وكيل البطريرك [٢]، والحق أن هناك عدة أسباب وراء هذا الاختيار، يأتى على رأسها العلاقة الوثيقة التى تربط سرجيوس بالأنبا مكاريوس من قبل، ووقوف الأنبا مكاريوس إلى جانبه فى مشاكله مع البطريركية، أضف إلى ذلك مساندة سرجيوس للأنبا مكاريوس عند الترشيح للكرسى البطريركى كما مر بنا. وفضلا عن هذا وذلك فإن البطريرك مكاريوس كان يتمتع بذكاء حاد ورغبة حقيقية فى الإصلاح، فرأى أنه باختياره لأحد أهم رموز « المعارضة » فى الكهنوت، وأحد أهم دعاة « الإصلاح »، فإنه بذلك يقوى من مكانة البطريركية ويجعلها قادرة على الوقوف فى مكانة مساوية للمجلس الملّى، فى صراعهما التقليدى حول إدارة شئون الأقباط.

أما بالنسبة لسرجيوس، فإن اعتزازه بشخصيته وإحساسه بالزعامة وشوقه إلى « منبر » رسمى، وصداقته لمكاريوس دفعه إلى قبول المنصب، يضاف إلى ذلك العداء الشديد بين كل من سرجيوس والمنياوى باشا وكيل المجلس الملّى، فكل منهما لا يقبل أن يكون بجانبه شخصية قوية. على أية حال أصدر البابا مكاريوس الثالث فى ٢٥ ديسمبر ١٩٤٤م قراره بتعيين القمص سرجيوس « وكيلا ونائبًا عنا بالديوان

---

(١) المصور ٢٥/ ٧/ ١٩٥٢ حديث مع القمص سرجيوس.

(٢) Carter , op cit; p. 41-42 .

البطريركى » [١]، ليبدأ سرجيوس صفحة جديدة من حياته مع المنصب الرسمى.

وفى هذه المرحلة سيتخلى سرجيوس عن بعض أفكاره الأساسية، إذ سيناصر لأول مرة البطريركية على المجلس الملِّى، وبعدما كان يصر على تحجيم دور «الرهبان» والإكليروس بصفة عامة لصالح « الإصلاح »، سيعمل على تعزيز هذا الدور، فبعد أقل من أسبوعين من توليه وكالة البطريركية، يعلن سرجيوس أنه يفاوض « الآن بروح المحبة أساطين المجلس الملِّى على إدخال الإكليروس فى فروع الإدارة بالديوان البطريركى، وفى لجان المجلس الملِّى، كما سيكون حضور الإكليروس فى جلسات المجلس الملِّى فى القضايا الزوجية حضوراً عمليًا» [٢]. وكان هذا التصريح فى حقيقة الأمر بمثابة إعلان الحرب مبكراً بين سرجيوس والمجلس الملِّى.

ويتولى سرجيوس منصب وكيل البطريركية توفر له للمرة الأولى أكبر « منبر للوعظ » آنذاك ونقصد به الكنيسة المرقسية بكلوت بك مقر البطريركية، إذ أخذ سرجيوس فى إلقاء مواعظه من هذا المنبر الرسمى عصر كل يوم أحد، وكانت كل هذه المواعظ تأييدًا للبطريركية ومعادية للمجلس الملِّى. وزاد من أهمية هذا الأمر حضور البطريرك بنفسه لبعض هذه المواعظ [٣]، وكانت مشكلة إدارة أوقاف الأديرة، وهل هى تحت مسئولية البطريرك، أم المجلس الملِّى، هى اللحن الذى عزف عليه سرجيوس فى عدائه الشديد للمجلس الملِّى، هذا العداء الذى دفعه إلى « التهجم على المجلس الملِّى، بألفاظ نابية من فوق منبر الكنيسة المرقسية ». وعلى هذا قدم المجلس الملِّى بلاغًا إلى النيابة العامة بقذف سرجيوس فى حق المجلس الملِّى[٤].

من ناحية أخرى حاول المجلس الملِّى من جانبه الضغط على البابا مكاريوس من أجل إقصاء سرجيوس عن منصبه، لكن البطريرك رفض هذا وأصر على التمسك بسرجيوس، فدعا المنياوى باشا وكيل المجلس الملِّى إلى اجتماع المجلس، حيث أصدر المجلس عدة قرارات كان أهمها عدم الاعتراف بالقمص سرجيوس وكيلا

---

(١) المنارة ٦/ ١/ ١٩٤٥ .

(٢) نفسه.

(٣) مصر ١٧/ ٤/ ١٩٤٥ .

(٤) المنارة ٢١/ ٤/ ١٩٤٥ .

للبطريركية وقطع راتبه، والسير فى إجراءات الدعوى القانونية أمام النيابة العامة بشأن قذف سرجيوس فى حق المجلس [1].

ونتيجة عمق الخلاف بين الكنيسة وسرجيوس من ناحية، والمجلس الملِّى من ناحية أخرى، خرجت أكبر جريدة قبطية تطالب القمص سرجيوس بالاستقالة من منصب وكيل البطريركية لإنهاء هذا الخلاف ورأب الصدع فى الصف القبطى[2]. كما قدمت الجريدة تفسيراً - من وجهة نظرها - لطبيعة الخلاف بين سرجيوس والمجلس الملِّى، حيث أرجعت أسباب هذا الخلاف إلى « روح العظمة » التى تسيطر على سرجيوس وتدفعه إلى افتعال الخلاف والبحث عن دور. كما أشارت الجريدة إلى أسباب مالية أخرى مثل عدم رضاء سرجيوس عن الراتب الذى قرره له المجلس الملِّى؛ حيث قرر له المجلس مبلغ (٢٠) جنيهًا، فى حين يطالب سرجيوس بمبلغ (٦٠) جنيهًا، رغم أن راتب الوكيل السابق (٨) جنيهات[3]، وبطبيعة الحال زادت هذه الحرب الإعلامية المتبادلة من عمق الخلاف بين سرجيوس والمجلس الملِّى.

واستمر الخلاف الحاد بين الكنيسة والمجلس الملِّى، حتى عهد البابا يوساب الجديد، إذ سرعان ما توفى البابا مكاريوس، وتولى البابا يوساب الثانى البطريركية فى عام ١٩٤٦م، بعد معركة حامية، إذ رشح البعض الأنبا يوساب مطران جرجا، ورشح البعض الآخر الأب داود المقارى، ودون الخوض فى تفاصيل هذه الفترة، وهذا الانتخاب، والذى تبادل الجميع فيه الكثير من الاتهامات الأخلاقية وأيضًا التزوير لمصلحة الأنبا يوساب، وصل الأخير إلى كرسى البطريركية بفضل مساندة إبراهيم باشا المنياوى وكيل المجلس الملِّى، والقمص إبراهيم لوقا أحد أشهر رجال الدين الأقباط، ولكن أين موقع سرجيوس على خريطة الأحداث؟

وقف سرجيوس من قبل مع البابا مكاريوس عند ترشيحه للبطريركية ضد الأنبا يوساب، وبعد وفاة مكاريوس رشح يوساب نفسه مرة أخرى، فوقف سرجيوس ضده ومع المرشح المنافس داود المقارى.

---

(١) مصر ١٨/ ٤/ ١٩٤٥.
(٢) مصر ٢٠/ ٤/ ١٩٤٥.
(٣) مصر ١٤/ ٤/ ١٩٤٥.

من هنا وكما يقول سرجيوس « كان أول عمل قام به يوساب إقالة سرجيوس من منصبــه»(١)، وعهد البابا يوساب إلى القمص إبراهيم لوقا السابق الإشارة إليه بمنصب وكيل البطريركية.

لكن لعبة صراع القوى لم تنته، بل ودخل فيها وافد جديد هو ملك خادم البابا يوساب وسكرتيره الخاص، والذى انتشرت حوله الشائعات بالفساد والمهازل الأخلاقية، كما سيأتى ذكره، من هنا كان من الطبيعى أن يقدم القمص إبراهيم لوقا استقالته من منصبه فى يوليو ١٩٤٧، وسارع البابا يوساب بقبولها وتعيين أحد مخلصيه، القمص سيداروس غالى وكيلا جديداً ؛ وبذلك فقد المجلس الملّى نصيراً كبيراً له فى معركته مع البابا وتقليم سلطات «الرهبان» لصالح « العلمانيين» لكن الخلاف بين الكنيسة والمجلس الملّى ازداد حدة، وصاحب ذلك اهتزاز شعبية البابا يوساب، لاسيما مع ما أشيع حول « ملك » وتصرفاته المخجلة، وأراد البابا يوساب تقوية جبهته إزاء المجلس الملّى، فلجأ إلى تحالف الأضداد، إذ عمل البابا على تقريب القمص سرجيوس له ـ رغم العداء السابق ـ ليواجه به إبراهيم باشا المنياوى والمجلس الملّى، كما كان سرجيوس فى أثناء هذا يبحث له عن دور جديد. من هنا بدأ سرجيوس فى محاولة لرأب الصدع بين الكنيسة والمجلس الملّى. وترتب على ذلك أن أصدر البابا يوساب الثانى أمراً فى ١٧ أكتوبر ١٩٤٩ بتعيين القمص سرجيوس وكيلا عامًا للبطريركية، وأشاد البابا بسرجيوس، وأن ما دفعه إلى اختياره هو « ما حباكم الله به من مقدرة دينية وكفاءة ممتازة » (٢).

من جديد فى البطريركية

عاد سرجيوس مرة أخرى إلى منصب وكيل البطريركية، رغم عداءه السابق الحاد مع كل من البابا يوساب الثانى، وأيضًا مع إبراهيم باشا المنياوى وكيل المجلس الملّى. لكن هذا المنصب كان يداعب دائمًا أحلامه، ويرضى ـ على الأقل ـ إحساسه

(١) المصور ١٩٥٢/٧/٢٥.
(٢) المنارة ١٩٤٩/١٠/٢٦.

بأنه « الزعيم الشعبى الحقيقى » للأقباط ؛ لذلك قفز سرجيوس فوق كل المتناقضات بقبوله هذا المنصب ، وكان سرجيوس يجيد بحق فن التعامل مع المتناقضات ، وبدا ذلك واضحًا فى ترحيب جريدة مصر بتوليه منصب وكيل البطريركية ، هذا على الرغم من العداء القديم بين سرجيوس والجريدة ، فضلا عن التنافس بين المنارة المصرية و«مصر» على زعامة الصحافة القبطية ، حيث أشارت جريدة مصر إلى أهمية الدور الذى يقوم به سرجيوس كوكيل للبطريركية فى الوساطة بين البطريرك والمجلس الملِّى بشأن من له حق إدارة الأوقاف القبطية [1]، كما صرح سرجيوس للجريدة بأنه إذا لم ينجح فى وساطته هذه، سيكرس جهوده - كوكيل للبطريركية - إلى غيرها من الأمور القبطية المهمة مثل التعليم الدينى المسيحى فى المدارس الأميرية ، قيود بناء الكنائس وغيره من الهموم القبطية[2] .

لكن هذه الفترة الأخيرة من بابوية يوساب كانت مليئة بالعواصف العارمة ، التى هزت من أركان البيت القبطى ، وأحدثت به الكثير من التصدعات ، وعلى المستوى القومى كانت نفس الفترة مليئة بالمتغيرات السياسية والاجتماعية حتى ما بعد قيام ثورة ١٩٥٢ ، ولكن ليس من شأننا الغوص فى هذه المسألة الأخيرة على أية حال شهدت هذه الفترة تصاعد الخلاف بين المجلس الملِّى والكنيسة ، إلى الحد الذى أدى إلى قطع المجلس الإمدادات الغذائية عن الوصول إلى المقر البطريركى ، وتبادل الطرفان رفع الدعاوى فى ساحة القضاء ، وقام البابا بحل المجلس الملِّى فى عام ١٩٥٠ ، وأصدرت الدولة أوامرها بتعيين مجلس ملى مؤقت، وزاد الأمر سوءاً تصاعد المشكلة الحبشية والخلاف بين أثيوبيا والكنيسة القبطية ، حيث تعالى التيار القومى فى أثيوبيا مطالبًا بتنصيب مطران أثيوبى - بدلا من القبطى - على الحبشة . وخشيت الكنيسة القبطية أن يكون ذلك مقدمة لفصل الكنيسة الحبشية عن الكنيسة الأم ، وزاد الأمر سوءاً تصاعد نفوذ سكرتير البابا « ملك » ، الذى أصبح المسيطر الحقيقى على الكنيسة ، حتى أن إيريس المصرى - أكثر مؤرخى الكنيسة محافظة -

---

(١) مصر ٢٠/ ١٠/١٩٤٩ .
(٢) مصر ٢٢/ ١٠/١٩٤٩ .

تصفه قائلة « المرارة التى ملأت النفوس، لأن خادمًا جاهلا أصبح المحرك الأول للبابا »[1]. من هنا تعقد الشأن القبطى، وأحس سرجيوس بأن البناء ينهار، وحفز ذلك مسألة الزعامة وأنه «المخلص» الجديد للأقباط، وأخذ سرجيوس فى عقد المؤتمرات العامة فى الدوائر القبطية دون إذن من البابا. كما اصطدم سرجيوس مع ملك فى صراع حول من له «القوة» فى البطريركية، وعلى هذا لم يكن من الغريب أن تقوم البطريركية بإعفاء سرجيوس من منصبه.

سقوط المجاهد وسقوط الكنيسة

أثارت الإقالة غضب سرجيوس، فهذه هى الإقالة الثانية من منصب الوكالة وعلى يد نفس البابا، كما أن سرجيوس نفسه كان قد قارب السبعين عامًا فكيف يقبل بعد هذا السن وهذا «الجهاد» الإقالة، وكان يوساب قد فقد الكثير من هيبته فى صراعاته أمام المجلس الملّى، ونتيجة تسلط ملك عليه. من هنا جاءت الثورة العنيفة لسرجيوس على البابا يوساب، حيث وجه النقد إلى الأسلوب العقيم لإدارة البطريركية الذى حال دون نجاحه فى الإصلاح، كما أشار إلى سوء الذمة المالية لإدارة البطريركية « كل هذه الجرائم المقترفة ضد أموال الدولة والكنائس والأديرة والشعب والأفراد »[2]، كما أشار إلى انتشار السيمونية وهى بيع الوظائف الدينية، حيث ذكر أن ملك خادم البابا عرض وظيفة وكيل البطريركية ـ بعد إقالة سرجيوس مقابل مبلغ (٧٠٠) جنيه[3].

وكان من الممكن أن تمر عاصفة الانتقادات، على الرغم من عظمها. لكن سرجيوس تجاوز الحد المسموح به من الانتقادات حيث عرض علنًا لبعض الشائعات التى كانت تروج فى أوساط الأقباط حول العلاقة الخاصة بين البابا وسكرتيره (خادمه)، حيث بدأ سرجيوس فى الإشارة إلى ذلك فى يوليو ١٩٥٢ مشيراً إلى تدخل المنياوى باشا لعزل ملك عن البابا «لماذا تتدخل يا باشا فى أمر خادمه

---

(١) إيريس المصرى : جـ٦ ص ٦٣ .
(٢) المنارة ١٩/٧/١٩٥٢ .
(٣) نفسه.

الخصوصى هذا التدخل الذى يجعل منك رجلا فضوليًا متطفلا، اللهم إلا إذ كان هناك سبب اكتشفته بعد انتخابه بطريركًا، فأردت أن تتلافاه بالحجر على غبطته على هذه الصورة »[١]، وتمادى سرجيوس فى هذا الأمر ونشر فى مطلع أغسطس ١٩٥٢ تعريضًا بالبابوية قائلا « الفضائح المجلجلة التى كان ضجيجها يوميًا أمام قصركم، ووراءه، أمام البطريركية، وأمام ديوان البطريركية »[٢]، حيث استكمل سرجيوس حديثه بما لا يمكن الإشارة إليه، وفى منتصف أغسطس ١٩٥٢م وصف سرجيوس ملك بأنه «الموهوب جسمانيًا المحظوظ بطريركيًا »[٣].

وكان هذا بمثابة إعلان الحرب بين البابوية وسرجيوس، حيث أصدر البابا قراراً بفرز وحرمان سرجيوس، ورد سرجيوس على ذلك برفع الدعاوى أمام القضاء، إذ رفع سرجيوس دعوى أمام محكمة القضاء الإدارى برئاسة الدكتور عبد الرزاق السنهورى لإلغاء القرار الصادر من المجلس الإكليركى بحرمه وفرزه وتجريده، كما رفع دعوى أخرى أمام محكمة جنح الأزبكية متهمًا البطريركية بالقذف فى حقه، مطالبًا بتعويض مالى قدره عشرة آلاف جنيه[٤].

وتعقدت الأمور فى أوساط الأقباط لاسيما بعد طلب الطرفين تدخل الدولة بعد ثورة يوليو، ولم يدرك الجميع أن طبيعة العسكريين تختلف عن النظام السابق.

وأمام انخفاض شعبية البابا يوساب الثانى، وأيضًا تصاعد دور حركة الإخوان المسلمين، لجأ البابا إلى إنشاء « جماعة الأمة القبطية » من الشباب القبطى لتكون عونًا له وواجهة جديدة تعيد إليه الشعبية، لكن البابا أخطأ من جديد، فمن قبل استخدم القمص سرجيوس فى مواجهة المجلس الملِّى[٥]، مما أدى إلى تصاعد شعبية سرجيوس، بحيث إنه أصبح يشكل خطراً عليه فأقاله وحرمه، فانقلب عليه سرجيوس، وها هو الآن يستخدم جماعة الأمة القبطية، ويدعمها بالتبرعات،

---

(١) المنارة ٢٦/ ٧/ ١٩٥٢ .
(٢) المنارة ٢/ ٨/ ١٩٥٢ .
(٣) المنارة ١٦/ ٨/ ١٩٥٢ .
(٤) المنارة ٦/ ٨/ ١٩٥٢ .
(٥) المنارة ٢٦/ ٧/ ١٩٥٢ .

لكن الجماعة يشتد عودها وتطالب بالإصلاح، وتصبح خطراً على البابا. وهنا يتخلى عنها البابا بل ويطلب من الدولة مواجهتها، وهنا ووفقًا لرواية إبراهيم هلال زعيم الجماعة كان لابد من إصلاح الأمر وإبعاد البابا والنظر فى أمر إصلاح شئون الكنيسة(١).

لكن الإجراء العنيف الذى قامت به الجماعة بالقبض على البابا وإبعاده عن البطريركية قد أثار الدولة على الجماعة. وتم تقديم أعضاء الجماعة للمحاكمة. ودون الدخول فى تفاصيل قصة جماعة الأمة القبطية، يروى إبراهيم هلال أنه قد خرج من السجن معجبًا أشد الإعجاب بسرجيوس، ودخل فى زمرة مريديه، حتى أن إبراهيم هلال وضع كتيبًا عن حياة سرجيوس باسم مستعار عند وفاة سرجيوس. نظراً لمنعه من الكتابة، كما أن إبراهيم هلال ذاته هو الذى وضع مادة سرجيوس فى الموسوعة القبطية(٢)، وهكذا أصبح سرجيوس رمزاً وأبًا روحيًا للمعارضة القبطية، أما البابا يوساب الثانى فتصفه إيريس المصرى ـ أكثر مؤرخى الكنيسة محافظة ـ قائلة «قد يضع البعض اللوم كله على ملك وعلى بطانة السوء، ولكن ملك لم يكن سوى خادم ولم تكن البطانة غير حاشية، ولو أن الراعى الأصيل أصغى إلى تأوهات شعبه وإلى نصح إخوته المطارنة لما وصل إلى هذا الموقف المحزن الموجع، فالمسئولية الأولى على الأنبا يوساب الذى قيل له يوم تنصيبه إنه مؤتمن من رب الكنيسة على رعاية شعب الكنيسة»(٣).

على أية حال أصدرت محكمة القضاء الإدارى فى إبريل ١٩٥٤م حكمًا ببطلان حرمان القمص سرجيوس، وكان هذا هو الحكم الأول من نوعه فى تاريخ القضاء المصرى(٤).

ولا نعلم كثيراً عن أنشطة سرجيوس الإصلاحية فى هذه الفترة وحتى مماته إلا القليل من حكايات مريديه، حيث قيدت الدولة وأيضًا الكنيسة من أنشطته، لكن

---

(١) حديث مع الدكتور إبراهيم هلال ٢١/ ١٢/ ١٩٩٥ بمكتبه بشارع الجمهورية.
(٢) The Coptic Encyclopedia, Vol 7. New York USA 1991: P. 2096, 7.
(٣) إيزس المصرى: جـ٦، ص٩٣.
(٤) المصور ١٦/ ٤/ ١٩٥٤.

سرجيوس استمر أحيانًا فى الوعظ فى بعض الجمعيات القبطية، وأيضًا جمعيات خلاص النفوس. كما هاجم بشدة البابا كيرلس، رافضًا ما تردد حول « بركات البابا» ويقال أيضًا إنه وضع كتابًا فى الرد على نظمى لوقا بمناسبة وضعه كتابًا عن النبى محمد ﷺ.

وسيصبح سرجيوس رمزًا وظاهرة فى تاريخ الأقباط، أليس هو رجل الدين، بطل الإصلاح بأفكاره وأحيانًا شطحاته، أليس هو من « حرم » أكثر من مرة. وهو الوحيد الذى دخل فى جدل عنيف مع الإخوان المسلمين، وهو أول رجل دين يرشح نفسه للبرلمان، وستؤثر شخصية سرجيوس بشدة على البعض من أجل خلق «سرجيوس جديد »، فالقمص بولس باسيلى الذى كان مدير الدعاية الانتخابية له فى عام ١٩٤٩، نجده يرشح نفسه، وفى نفس الدائرة، شبرا، للبرلمان فى السبعينيات، وينجح فيما فشل فيه سرجيوس، وفى مذكراته، يخصص القمص بولس فصلا عن القمص سرجيوس. وإبراهيم هلال زعيم «جماعة الأمة القبطية» عندما يجتر إحباطته يتذكر أن سرجيوس قال له عند وفاته « تركت الراية لك »، وحتى القس المعارض إبراهيم عبد السيد يحاول أن يتقمص ويتجسد شخصية سرجيوس، لكنه لا يعلم أن معطيات زمن سرجيوس تختلف عن الواقع المعاصر، وأن إمكانيته شخصيًا لا تقارن بسرجيوس الذى منحه القدر والمناخ الاجتماعى والسياسى أبعادًا كثيرة، ولكن سرجيوس بما له وما عليه سيظل أسطورة فى تاريخ الكنيسة.

* * *

الفصل الرابع

حقوق الأقباط

على قدر الأدوار المهمة التى لعبها سرجيوس فى الحياة السياسية والإصلاح القبطى، فإن الدور الذى لعبه سرجيوس فيما أطلق عليه « حقوق الأقباط » يعد الأكثر إثارة وغرابة فى الوقت نفسه، وهو ما سيتضح لنا فيما بعد.

ومسألة حقوق الأقباط ومطالبة الدولة بها سابقة على عصر سرجيوس، أى على الفترة التى لمع فيها نجم سرجيوس، إذ يمكننا أن نجد لهذا الأمر أصداء فى برنامج الحزب الهلامى المسمى « الحزب المصرى » (١) والذى كان فى حقيقته محاولة لإقامة « حزب قبطى» فى عام ١٩٠٨ .

ولكننا نبحث عن السبب الذى دفع سرجيوس « بطل الوحدة الوطنية فى ثورة ١٩١٩ » إلى التطرق إلى هذا الميدان الحساس المسمى بحقوق الأقباط، فى الحقيقة من الصعب أن نرد ذلك إلى تصاعد التيار الإسلامى وظهور حركة الإخوان المسلمين، فالأمر أعمق وأقدم من ذلك، إذ طالب سرجيوس الحكومة فى يناير ١٩٣١ فى عهد حكومة صدقى باشا بإلغاء المادة الواردة فى الدستور بأن دين الدولة الرسمى هو الإسلام. ويبرر سرجيوس هذا بأنه من الضرورة بمكان حتى تصبح حكومة مصر حكومة للجميع؛ وحتى يتفق ذلك مع ما ينص عليه الدستور من أن حرية الاعتقاد مطلقة (٢).

ويتفق هذا الأمر مع التحول المهم فى نشاط سرجيوس بعد إحساسه بانحسار

(١) عن ذلك انظر يونان لبيب رزق : الحياة الحزبية فى مصر فى عهد الاحتلال البريطانى، القاهرة ١٩٧٠م، ص٣٨، ٤٤ .

(٢) المنارة المرقسية ٣١/ ١/ ١٩٣١.

الأضواء عنه بعد انتهاء ثورة ١٩١٩ ، فضلا عن أن مسألة الوحدة الوطنية لم تعد من القضايا ذات الصدارة آنذاك . من هنا انحاز سرجيوس إلى مسألة حقوق الأقباط لاسيما فى إطار صراعه الطويل مع البطريركية ، وحرصه الدائم على ظهوره بمظهر «المدافع الأول » عن حقوق الأقباط .

وسيدفع إحساس سرجيوس بزعامته للأقباط إلى الدخول فى مواجهات عنيفة مع الكنيسة ، ومع قوى سياسية أو رموز قبطية ، أو حتى مع الدولة دفاعًا عن «حقوق الأقباط » .

سرجيوس، الكنيسة وحقوق الأقباط

هون سرجيوس من شأن الكنيسة كمدافعة عن حقوق الأقباط ، ولم ينبع ذلك من عدم اعترافه بالكنيسة كمؤسسة رسمية للأقباط ، بقدر ما نبع من موقفه الشخصى من معظم البابوات المعاصرين له ، و«حرمانهم» له ، ولكن ذلك لم يكن السبب الرئيسى من وجهة نظر سرجيوس ، إذ نظر سرجيوس إلى الكنيسة على أنها مؤسسة «رسمية» «متهادنة» مع الحكومة مما جعلها لا تلعب الدور الرئيسى فى هذا الشأن فى عام ١٩٤٩ ، وهى السنة التى شهدت نزوله إلى ميدان الانتخابات طمعًا فى الوصول إلى البرلمان مدافعًا عن حقوق الأقباط ، إذ اتهم سرجيوس الكنيسة بالتهاون فى المطالبة بحقوق الأقباط ، وأشار إلى وجود بعض قوى الضغط القبطية التى تؤثر على الكنيسة وتحد من دورها كمدافعة عن الأقباط لصالح الدولة . وهدد سرجيوس البطريرك بأنه سيطرح المسألة على الأقباط والكنائس مشيرًا إلى كل الحقائق التى تحت يديه ، واصفًا الكنيسة بأنها نامت « فى جوف السفينة . . . رغم صراخ الغرقى ، واستغاثة المستغيثين » ، وأن « الشعب القبطى » فى هذه الحالة سيفوضه تفويضًا يخول له « الاتصال » بجهات تستطيع أن تضع حدًا لما نشكو منه وتساعدنا على أن **نعبد ونعتقد بكل حرية كنص الدستور** (١) .

والحق أن سرجيوس لم يعترف أبدًا بالكنيسة كمؤسسة رسمية « تدافع » عن

(١) المنارة ١٥/ ٧/ ١٩٤٩ .

الأقباط ، إلا فى اللحظات القليلة التى « تهادن » فيها معها ، ورأى سرجيوس فى نفسه « زعيم الأقباط » مع ما فى هذا من مبالغة ، ونحن لا ندرى بطبيعة الحال أشخاص القوى المؤثرة على «تسكين» و«هدوء» الكنيسة ، كما لا نعلم أيضًا ما الجهات الأجنبية التى سيتصل بها سرجيوس دفاعًا عن حقوق الأقباط ، ولكننا ندرى أنه كان على اتصال ببعض الأقباط فى الخارج ، كما أنه ساهم فى إصدار كتاب عن «تدنى» أوضاع الأقباط فى مصر آنذاك ، ونشر الكتاب بالإنجليزية فى الولايات المتحدة (١) . ويتفق هذا مع التحولات الطائفية لسرجيوس فى هذه الفترة .

ومن ناحية أخرى شن سرجيوس هجومًا حادًا على بعض الرموز السياسية القبطية ، ويأتى على رأسهم مكرم عبيد ، إذ اتهم سرجيوس مكرم عبيد بأنه لم يكن فى يوم من الأيام عونًا للأقباط على حل مشاكلهم الطائفية ، ولم يمنح الأقباط فى عهد أى حكومة وفدية حقًا من الحقوق لم تمنحه لهم الحكومات غير الوفدية ، واتهمه أيضًا بالأنانية والمنفعة الخاصة(٢) .

الدولة، الوفد وحقوق الأقباط

وعلى نفس النحو شن سرجيوس العديد من الحملات على حزب الوفد الذى رأى أنه تخلى عن مبادئ ثورة ١٩١٩ ، تلك المبادئ التى دفعت الأقباط إلى الانخراط فى الثورة ، ويرى سرجيوس – من وجهة نظره – أن هذا السبب دفع الأقباط إلى الابتعاد عن الوفد ، وهدد سرجيوس مصطفى النحاس أنه إذا لم يسمع صوته المنادى بحقوق الأقباط فإنه سيلجأ إلى « لجنة حقوق الإنسان » مهددًا بطرح المسألة القبطية على المحافل الدولية (٣) .

ولم يكتف بمهاجمة أكبر حزب سياسى آنذاك ، بل كثيرًا ما هاجم «الدولة»

---

(١) The Cry Of Egypt's Copts . Documents on christian life in Egypt today. New York 1951 .

(٢) المنارة ١١/ ٢/ ١٩٣٨ .

(٣) العدد السابق وأيضا ٣٠/ ١١/ ١٩٤٩ .

كنظام، فقد طالب سرجيوس بتعديل الدستور وإلغاء المادة الخاصة بأن الإسلام هو دين الدولة الرسـمى[1]، كما هاجم سرجيوس منشور وزارة الداخلية الخاص بشروط بناء الكنائس، وموقف المحكمة الشرعية من القبطى الذى أسلم ويريد العودة إلى دينه، وترتب على هذا مصادرة « القسم السياسى» لعدد المنارة الذى نشر فيه أراءه السابقة[2].

ووصل الأمر بسرجيوس أنه اتهم الحكومة بدفع الأقباط إلى التشبه بمسلمى الهند الذين انفصلوا وكونوا لهم دولة خاصة تحت اسم « الباكستان » ، وإن تحفظ سرجيوس على ذلك ورأى أن الأقباط لن ينفصلوا عن الحركة الوطنية المصرية[3].

كما صادر « القسم السياسى » عدد المنارة الصادر فى ٢١ يناير ١٩٥٢ ، نظراً للمقالات النارية لسرجيوس فى أعقاب حريق كنيسة السويس فى ٤ يناير ١٩٥٢[4].

ومن ناحية أخرى فتح سرجيوس أبواب مجلته لبعض القوى القبطية المدافعة عن «حقوق الأقباط». إذ كانت المنارة هى لسان حال « الحزب الديمقراطى القومى»، الذى كان فى حقيقة أمره حزبًا قبطيًا، لكنه كان من الهشاشة بمكان بحيث لم يكتسب الصفات والمقومات الحقيقية للحزب، ولعل أهم البيانات الصادرة فى هذا الشأن عن الحزب والتى نشرتها المنارة، هو البيان الذى أصدره سكرتير الحزب رمسيس جبراوى المحامى فى عام ١٩٤٩ بشأن حرية العقيدة، إذ أصدر الحزب بيانه إلى رئيس الوزراء ورؤساء الأحزاب مشيراً إلى تدنى أوضاع حقوق الإنسان القبطى فى مصر وأبسطها حرية العقيدة، حيث طالب الحزب بإلغاء قيود البناء المفروضة على الكنائس، وإطلاق حرية تشكيل الجمعيات الدينية، وحرية عقد الاجتماعات الدينية، كما طالب الحزب بإتاحة الفرصة لجميع المواطنين - دون النظر إلى العقيدة - فى تولى الوظائف الحكومية، ورأى الحزب ضرورة إتاحة الفرصة فى الإذاعة الحكومية أمام جميع العقائد، دون التقيد بمسألة

---

(١) المنارة المرقسية ٣١/ ١/ ١٩٣١ .

(٢) منارة ١٥/ ٧/ ١٩٤٩ .

(٣) مناره ٧/ ١٢/ ١٩٤٩ .

(٤) منارة ٢٨/ ١/ ٥٢ وأيضًا ٤/ ٢/ ١٩٥٢ .

أن الإسلام هو دين الدولة الرسمى. وأثار الحزب الديمقراطى القومى مسألة فى غاية الحساسية فى الممارسة السياسية فى مصر، وهى «التمثيل النسبى» للأقباط فى الانتخابات ؛ إذ طالب الحزب بأن تضم قوائم الأحزاب أعداداً من مرشحيها الأقباط موافقًا لنسبتهم العددية فى المجتمع المصرى، وألمح الحزب بطرح المسألة برمتها أمام «المجلس الاقتصادى والاجتماعى بهيئة الأمم المتحدة» إذا لم تتوصل الأحزاب إلى حل لهذه المسألة (١).

كما نشر سرجيوس فى المنارة بيان المجلس الملّى العام فى أعقاب حريق كنيسة السويس ، حيث أعلن المجلس الملّى العام « الحداد العام » وإلغاء « المعايدة » فى جميع أنحاء مصر ، كما طالب الحكومة بإجراء تحقيق دقيق ومعاقبة المسئولين وتعويض أهالى القتلى، فضلا عن الخسائر المادية ، وناشد المجلس الحكومة باتخاذ الإجراءات السريعة الحازمة لمنع تكرار هذه الحوادث (٢)، ولا يغيب عنا بطبيعة الحال مدى شدة الإجراءات السابقة، فإعلان الحداد العام وإلغاء المعايدة، هو نفس أسلوب «الاحتجاج السلبى» الذى اتبعه البابا شنودة الثالث إزاء السادات، الذى تعامل مع ذلك بحدة مبالغ فيها ، مما أدى إلى تصاعد الأحداث التالية.

وقد تركزت مطالب سرجيوس الخاصة بحقوق الأقباط فى عدة نقاط، مثل بناء الكنائس وحرية العبادة، وتعليم الدين المسيحى فى المدارس، وإعطاء مساحة فى أجهزة الإعلام ولاسيما المستجدة آنذاك – مثل الإذاعة لإبراز الهوية المسيحية، وإعطاء فرصة أكبر للأقباط فى الوظائف الحكومية، ثم مسألة الأعياد القبطية كأعياد رسمية لكل المصريين.

بناء الكنائس

فالنسبة لمسألة بناء الكنائس شن سرجيوس هجومًا حادًا فى مناسبات مختلفة حول هذا الشأن، وبصفة خاصة حول القيود المفروضة على بناء الكنائس ، ولم يكتف سرجيوس بذلك، إنما فتح أبواب مجلته لنشر الآراء المطالبة بهذا الأمر، ومن

---

(١) المنارة ١٧/٦/١٩٤٩ .

(٢) نص قرار المجلس الملّى منشور منفصل وزع مع مجلة المنارة .

هؤلاء أحد الشعراء الأقباط الذى نظم شعراً فى ذلك :

أقبــاط مصــر أهــل ذمــة　　　أهــل إيمـــان قويـــم
خدموا البلد، خدموا الوطن　　　خدموا الكنانة مذ قديم
أتمنــع الكنـائـس فيــها يعبد　　　ربنـا الـرب العظيـــم
أتمنـع الأجـــراس تهتــف　　　باســم فادينـا الكريـــم
هــــذا التصــرف يا وزيــر　　　الشـأن ينكـره العـليـم
هـذا التصـرف لا يشـــرف　　　هيئـة الهـادى إبراهيـم(١)

تدريس الدين المسيحى

وكـانت مسـألة تدريس الدين المسيـحى فى مـدارس وزارة المعـارف من المعـارك المهمة التى أدلى فيها سرجيوس بدلوه - وهى مسألة حساسة عبر تاريخ التعليم فى مصر حتى الآن ، إذ طالب سرجيوس فى عام ١٩٤٩ وزير المعارف بالإسراع بجعل الدين المسيحى مادة أساسية كالدين الإسلامى فى المدارس(٢)، وفى عـام ١٩٥٢م وفى أعقاب تقلد طه حسين وزارة المعارف أصدر طه حسين أوامره بتدريس الدين المسيحى للطلاب المسيحيين فى جميع المدارس أسوة بأقرانهم المسلمين وهلل سرجيوس لهذا الأمر قائلا إن طه حسين أراد بذلك أن « يمحو وصمة العار هذه عن وزارته . . . فاعترف بحق الأقباط فى تعليم أولادهم مبادئ دينهم المسيحى فى جميع المدارس . . . كما يتعلم المسلمون مبادئ دينهم »(٣) .

الأقباط والإعلام

وشغلت مسألة إعطاء الأقباط مساحة على خريطة أجهزة الإعلام اهتمامًا ملحوظًا فى هذا الوقت المبكر ، وهى القضية التى ما زالت تثير صخبًا شديداً حتى الآن ، فقد أرسل أحد أقباط أبوقرقاص برسالة إلى مجلة المنارة يشكو من رفض

---

(١) هى أبيات للشاعر القبطى إميل إسكندر ، انظر المنارة ٢٢/٧/١٩٤٩ .
(٢) المنارة ١٢/٨/١٩٤٩ .
(٣) المنارة ٧/١/١٩٥٢ .

الإذاعة السماح بإذاعة العظات الدينية ، وأثار الرجل مشكلة فى غاية الحساسية وهى مشكلة الأقليات الإسلامية فى أوربا الشيوعية آنذاك، وهى المسألة التى كانت مثار اهتمام الرأى العام المصرى آنذاك، فى أعقاب سقوط شرق أوربا فى أيدى الشيوعيين، فيذكر الرجل أنه فى المجر يذيع راديو بودابست القرآن لمسلمى المجر فى شهر رمضان، فكيف لا تسمح الإذاعة المصرية بإذاعة العظات للأقباط فى أعيادهم.

ولم يكن رد سرجيوس بأقل شجنًا من الرسالة السابقة ، إذ طالب فى سخرية واضحة أن تعامل الحكومة المصرية الأقباط «كمواطنين» كما تعامل الحكومات المسيحية المسلمين من أبنائها، ويرى سرجيوس أن هذا الأمر من الضرورى بمكان للحفاظ على سمعة مصر الدولية، كبلد ديمقراطى لا يعرف إلا القومية، وتطبيقًا لما التزمت به مصر بتصديقها قانون حقوق الإنسان[1]، ولم يقتصر الأمر على ذلك إذ شن رمسيس جبراوى بعد ذلك بسنوات حملة شعواء من خلال « المنارة » على الإذاعة المصرية لعدم إفساحها المجال لإبراز الهوية الدينية للأقباط كما تسمح بذلك لأقرانهم المسلمين، بل ورأى جبراوى أن البرامج الدينية فى الإذاعة تشن هجومًا ونقداً شديداً للعقائد المسيحية مما يمثل اعتداءً على الأقباط وعلى الهوية القبطية[2]، ويذكرنا ذلك بما شهدته سنوات السبعينيات من مجادلات إسلامية ومسيحية حول التعرض لعقائد مسيحية مثل الصلب والتثليث فى البرامج الدينية فى التليفزيون المصرى، وهو الجدل الذى تورط فيه أشهر الرموز الإسلامية والقبطية آنذاك، الشيخ الشعراوى والقمص بولس باسيلى[3].

التمثيل النسبى

وكانت أخطر النقاط فى مسألة « حقوق الأقباط » وأكثرها حساسية، هى مسألة التمثيل النسبى للأقباط فى المجالس النيابية، وهى الفكرة التى طرحت عند إعداد

---

(١) منارة ١٨/ ٣/ ١٩٤٩، وانظر أيضًا منارة ١٢/ ٨/ ١٩٤٩ .
(٢) منارة ٧/ ١/ ١٩٥٢ .
(٣) القمص بولس باسيلى : المرجع السابق.

دستور ١٩٢٣ ، وانقسم الأقباط فيها قسمين ، ما بين معارض ومؤيد ، إلى أن انتصر الفريق المعارض للتمثيل النسبى ، وحجته فى ذلك أن مناخ ما بعد ثورة ١٩١٩ سيسمح بالحرية والمساواة للجميع ، وأن قضية التمثيل النسبى ربما تقوض ما نجحت ثورة ١٩١٩ فى إرسائه(١) .

إلا أن تطور الأحداث السياسية ، والانقلابات الدستورية التى عرفتها مصر ، وتراجع مسألة الوحدة الوطنية ، وظهور جماعة الإخوان ، ثم حدة التمايز الدينى دفعت بمسألة التمثيل النسبى للأقباط إلى الأضواء من جديد ، ووجدنا القمص سرجيوس رمز الوحدة الوطنية فى ثورة ١٩١٩ يطالب فى عام ١٩٤٩ - عام نزوله إلى الانتخابات النيابية - بضرورة تطبيق التمثيل النسبى للأقباط ، ولا يجد سرجيوس أى غضاضة فى الإشارة إلى الأقباط بأنهم «أقلية» وعليهم الاستفادة من حقوق الأقليات . إذ يقدر سرجيوس عدد الأقباط فى مصر آنذاك بحوالى ثلاثة ملايين من إجمالى ١٧ مليون هم سكان مصر . من هنا يطالب بحقهم فى التمثيل فى المجالس النيابية بنسبة السدس ، ويرى سرجيوس أنه إذا تحقق هذا الأمر سيصبح نصيب الأقباط خمسين كرسيًا من كراسى مجلس النواب الذى يبلغ عدده ثلاثمائة كرسى(٢) ، وربما نلتمس العذر لسرجيوس على طرحه مسألة التمثيل النسبى بأنه كان فى إطار حملته الانتخابية ، أو أن الظروف السياسية دفعته إلى ذلك . لكن الملاحظ أن مسألة التمثيل النسبى للأقباط كثيراً ما تطرح فى خضم الحملات الانتخابية لاسيما مع ضعف عدد المرشحين الأقباط فى قوائم الأحزاب وندرة أو عدم وصول أحدهم إلى البرلمان ، ودفع ذلك الأمر بالدولة فى ظروف لاحقة «بتمثيل الأقباط » من خلال تعيين بعضهم فى إطار العشرة المبشرين بكرسى البرلمان ، والذى يحق للدولة تعيينهم ، وهو الأمر الذى يجد معارضة شديدة من جانب جميع التيارات القبطية .

---

(١) انظر عن ذلك كتابات سميرة بحر ، وأيضا طارق البشرى .

(٢) المنارة ٧/ ١٢/ ١٩٤٩ ، وراجع فى هذا الشأن دعوة سرجيوس لتدخل الإنجليز للحفاظ على الأقباط من طغيان جماعة الإخوان فى موقفه من الإخوان المسلمين.

وتزداد حدة سرجيوس فى شأن «حقوق الأقباط» معلنا : إن كنا عبيدا فلماذا لا يدعوننا نطالب بحقنا الطبيعى فى الحرية ؟ وقد طالب بها زنوج أمريكا، ومنبوذو الهند وهنود جنوب إفريقيا (١) .

وبطبيعة الحال لن يسمح نظام يوليو الذى نجح فى تأميم «الحياة السياسية » بإثارة المسألة القبطية، من هنا سيدخل سرجيوس فى بيات شتوى طويل، لكن سرجيوس الذى أصبح رمزاً للوحدة الوطنية، أصبح أيضًا رمزاً للدفاع عن « حقوق الأقباط » عند الراديكاليين الأقباط، وبصفة خاصة التيارات النشطة فى هذا الاتجاه من أقباط المهجر، ويردد البعض أن كتابات سرجيوس ومجادلاته الدينية مع العلماء المسلمين يعاد طبعها حاليًا بين هذه التيارات.

الرمز، الإحباط، الطائفية

قد تبدو الوطنية – فى أذهان الجميع – موقفًا ثابتًا واضحًا لا يختلف عليه اثنان، لكن الأمور التى تبدو واضحة جلية هى أكثر الأمور ضبابية، بل وخلافية. قد يتضح ذلك من خلال المتابعة الدقيقة لتطور « المواقف » عند سرجيوس، فهو فى البدء وفى الخاتمة «رمز الوحدة الوطنية » ولكن قد يفسر البعض موقفه السابق فيما يتعلق ب «حقوق الأقباط » بالطائفية، بينما يراه هو فى أساس الوطنية.

وفى رأينا أن موقف سرجيوس السابق يمكن تفسيره من عدة أبعاد ، فمن ناحية لم يعد شعار ثورة ١٩١٩ وحدة الهلال مع الصليب هو شعار الفترة محل البحث، وفشل سرجيوس فى إيجاد موضع قدم له على الساحة السياسية فى خضم الصراعات الحزبية، فهو فى النهاية «رجل دين». كما اتسمت فترة الأربعينيات وبداية الخمسينيات بعلو النبرة الدينية ، وراهن الجميع – تقريبًا – على « الخطاب الدينى »، كما شهدت الفترة إعلان «حقوق الإنسان » من خلال الأمم المتحدة، وأصبحت مسألة الأقليات فى خضم السياسة الدولية.

---

(١) منارة ٢٢/ ٧/ ١٩٤٩ .

وفضلا عن هذا وذاك لا ينبغى إغفال عامل « الإحباط الشخصى » عند سرجيوس، وبالتالى سعيه إلى إيجاد « شعار جديد » أو « لافتة » جديدة، وهو موقف ليس بالفريد وإنما متكرر فى مرحلة معينة من حياة شخصيات وطنية ارتبط تاريخها بمسألة « الوحدة الوطنية » ، نجد مثالا على ذلك عند مكرم عبيد وسلامة موسى فى فترة الأربعينيات، ميلاد حنا فى فترة التسعينيات ، ولكنها على أية حالة مرحلة وقتية تتجاوزها الشخصية بتجاوز « إحباطها »، وأيضًا بتجاوز المجتمع الرهان على الخطاب الدينى .

* * *

الخاتمــة

وأخيراً البيات الشتوى ما بعد ١٩٥٢ لم يدم شهر العسل القصير بين الثورة والأقباط لمدة طويلة ، إذ ظهرت آنذاك بعض المنشورات القبطية التى تدين « حركة الضباط الأحرار » ، وتتهمها بأنها على صلة بجماعة الإخوان المسلمين ، ولا ندرى ما صلة سرجيوس بهذه النشرات ، إلا أنه على أية حال وقف منددا بهذه المنشورات أمام وفد من ضباط الثورة [(١)] ، وزاد من تعقد العلاقات بين الثورة والأقباط ، عدم معرفة هؤلاء الضباط بالمشاكل الحقيقية للأقباط ، إذ استمرت الثورة فى محاولتها الرامية إلى « تحديث » قانون الأحوال الشخصية للطوائف غير الإسلامية ، على الرغم من المعارضة الحادة من جانب الكنيسة ، وكبار الشخصيات القبطية ، بما فيهم سرجيوس[(٢)] ، كما حاول بعض الأقباط توريط ضباط يوليو فى الخلافات القبطية المزمنة ، إذ ناشد سرجيوس اللواء محمد نجيب إلى مباركة حركة « التطهير » التى يدعو إليها سرجيوس فى «الكنيسة » ، أسوة بحركة التطهير التى دعا إليها نجيب لتطهير الإدارة المدنية [(٣)] ، وكان سرجيوس يريد من ذلك استثارة حركة يوليو إلى جانبه فى صراعه مع البطريرك يوساب الثانى .

وحتى جريدة مصر القبطية عرضت فى سخرية الصراع التقليدى بين المجلس الملّى والإكليروس ، مطالبة الدولة التدخل فى ذلك مستخدمة شعار ضباط يوليو

(١) المنارة ٩/ ٨/ ١٩٥٢ .

(٢) مصر ٦/ ٨ و ١٤/ ٨/ ١٩٥٢ ، كما قام إبراهيم هلال بتقديم مذكرة للثورة بمطالب الأقباط فيما يتعلق بالأحوال الشخصية ، حديث شخصى فى مكتبه فى ٢١/ ١٢/ ١٩٩٥ .

(٣) المنارة ٣٠/ ٨/ ١٩٥٢ .

آنذاك ، وهو «التطهير» ، «فالتطهير ، التطهير من الخلافات والانقسامات الداخلية والنزعات الشخصية » (١) .

وفى وسط هذه المشاكل كانت الثورة مشغولة بتأكيد سيادتها الداخلية ، ومشاكل الجلاء والعلاقات الخارجية ، ولم تول الثورة اهتمامًا كبيرًا بالمسألة القبطية ، ولا سيما مع ازدياد الخلافات القبطية الداخلية ، وأدارت الثورة شئون الأقباط من خلال التكنوقراط الأقباط .

ولم يرض سرجيوس عن ذلك، وعن انصراف الثورة عما أسماه «الإصلاح القبطى»، الذى لم يكن يعنى فى الحقيقة ، سوى إبعاد يوساب الثانى عن الكرسى البطريركى، وفى مقالة شهيرة رأى سرجيوس أن حركة يوليو مثلها مثل العهد السابق لم تقدم جديدًا فى شأن الأقباط (٢)، وهنا كانت النهاية للنشاط السياسى لسرجيوس ، فلم يدرك سرجيوس تغير الأوضاع السياسية بظهور ثورة يوليو ، وأن النقد المقبول سابقًا لم يعد فى الإمكان قبوله، إذ أغلقت الثورة مجلته المنارة لتنتهى بذلك حياة إحدى أهم الدوريات القبطية، بل ويقطع بذلك لسان سرجيوس الذى كان يربطه بالحياة العامة ، ووفقًا لبعض الروايات الشفوية من المقربين لسرجيوس ، أمرت وزارة الداخلية القمص سرجيوس بالبقاء فى منزله وعدم الخوض فى السياسة، بل منعته حتى من الوعظ فى الكنائس ، ساعدها على ذلك أن الكنيسة القبطية كانت قد «حرمته» من قبل، وهكذا بدأت النهاية لسرجيوس الذى دخل فى مرحلة البيات الشتوى الطويل ، إذ لم نعد نسمع عن سرجيوس إلا فى عام ١٩٥٤ عندما أصدرت محكمة القضاء الإدارى حكمًا ببطلان قرار الكنيسة بحرمان سرجيوس وإبعاده عن كنيسته فى القللى، حيث أجرت مجلة المصور حديثًا معه ، تركز حول ذكرياته حول الثورة ١٩١٩ والوحدة الوطنية دون التطرق إلى أى موضع آخر ، وموضوعًا آخر (٣)، أجرته نفس المجلة ولكن فى عام ١٩٦٩ بعد هزيمة

---

(١) مصر ١٩٥٢/٨/١٥ .
(٢) المنارة ٢٧/ ١٢/ ١٩٥٢ ، ويلاحظ أسلوب التورية والسخرية .
(٣) المصور ١٦/ ٤/ ١٩٥٤ .

يونيو ١٩٦٧ ، وبمناسبة خمسين عامًا على ثورة ١٩١٩ ، وتركز الحديث حول دوره في ثورة ١٩١٩ فقط (١) .

وفى رأينا أن الدور التاريخى لسرجيوس قد انتهى بمجيء ثورة يوليو، حيث تقلصت مساحة الديمقراطية التى كانت تسمح بالنقد فيما قبل ، أضف إلى ذلك «كارزمة» سرجيوس وإحساسه بالزعامة ، ولا يتفق ذلك مع طبيعة العهد الثورى ، فضلا عن أن القضية الشاغلة لسرجيوس آنذاك كانت الدفاع عن «حقوق الأقباط» ، وهو ما لا ترضى عنه ثورة يوليو، إذ عالجت الثورة المسألة القبطية من خلال التكنوقراط، أو من خلال تحسن العلاقة بين ناصر وكيرلس بعد ذلك .

من هنا لم يكن هناك دور لسرجيوس ، ومن هنا دخل سرجيوس في بيات شتوى طويل، يحيط به تلاميذه من شباب المعارضة القبطية ، مثل إبراهيم هلال زعيم جماعة «الأمة القبطية » الشهيرة بأحداث ١٩٥٤ ، وإبراهيم عبد السيد المحرر بجريدة مصر القبطية آنذاك والقس المعارض للكنيسة الآن (٢)، وفؤاد باسيلى المحامى ، الذى سيدخل سلك الكهنوت بعد ذلك ليصبح القمص بولس باسيلى ، ويحقق حلم سرجيوس فى دخول العمامة السوداء إلى مجلس الأمة بالانتخاب ، وعن دائرة شبرا أيضًا (٣) .

الوفاة ليست النهاية

مع تقدم سرجيوس فى العمر سمحت الثورة له فى عام ١٩٥٩ بالوعظ فى الكنائس، دون التحدث فى الشئون السياسية ، أو المسألة القبطية ، فقام سرجيوس بالوعظ فى الكنائس الكاثوليكية والبروتستانتية، والجمعيات القبطية الأرثوذكسية(٤) . واشتد عليه المرض فى سنواته الأخيرة إلى أن توفى فى يوم

(١) المصور ٧/ ٣/ ١٩٦٩ .

(٢) حديث شخصى مع إبراهيم هلال، والقس إبراهيم عبد السيد.

(٣) حديث تليفونى مع القمص بولس باسيلى، وأيضا مذكرات القمص بولس باسيلى، السابق الإشارة إليها.

(٤) القمص إبراهيم عبد السيد : كتيب عن سرجيوس القسيس الثائر ، القاهرة ١٩٩٤ . ص ٢١ .

السبت ٥/٦/ ١٩٦٤ عن عمر يناهز ٨١ سنة، وعلى الرغم من «الحرمان» الصادر على القمص سرجيوس أرسل البابا كيرليس أحد المطارنة للسؤال عن صحة سرجيوس في أثناء مرضه الأخير في المستشفى القبطي، وسارت جنازة سرجيوس من منزله في شبرا إلى الكاتدرائية المرقسية في كلوت بك يحيط بها المئات من المشيعين من المسحيين والمسلمين، والعديد من وفود الكنائس المسيحية المصرية، فضلا عن أحد كبار الضباط نائبًا عن الرئيس جمال عبد الناصر (١). وبشهادة تلاميذ سرجيوس تساهلت الدولة في أمر الجنازة ولم تقم بعرقلة الجنازة أو الحد من مظاهرها، ونشرت الأهرام كبرى الجرائد المصرية على لسان أحد أهم كتابها رثاءً حاراً لسرجيوس حيث ذكر « لقد نعي سرجيوس في الصحف فقيداً للكنيسة المسيحية، وهذا صحيح، لكنه ليس كل الحق، فهو أيضًا بنفس القدر والعمق فقيد الجامع الإسلامي . . . فقيد الشعب المصري » (٢) .

الرمز واستدعاء التاريخ

يشير ماكس فيبر إلى وجود ثلاثة أنماط من القادة الدينيين، وهي : النمط البيروقراطي، والنمط الكارزمة، والنمط التقليدي، ويشير النمط الأخير إلى القائد الذي يستقي سلطته من الوراثة أو من بعض الأعراف التقليدية . أما القائد الديني البيروقراطي، فيشق سلطته من مكانته القانونية في تسلسل ديني محدد . وأخيراً يأتي نمط القائد الديني الكارزمي حيث يعتمد على خصائصه الشخصية والإلهامية، ويظهر هذا النمط في أثناء فترات الثورة أو التجديد (٣)، وينطبق هذا النمط الأخير على القمص سرجيوس الذي تمتع بقدرات خاصة لم تتوافر لغيره من رجال الدين المسيحي آنذاك، وساعدت ثورة ١٩١٩ وما تلاها على لمعان اسمه، وإظهار زعامته ودوره التاريخي .

---

(١) وطني ٦/٩/ ١٩٦٤ .

(٢) لطفي الخولي : مصر كلها كانت كنيسة سرجيوس، الأهرام ٢٤/٩/ ١٩٦٤ .

(٣) محمد عاطف غيث، محرر : قاموس علم الاجتماع، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٩، مادة أنماط القادة الدينيين، ص ٣٨٣ .

من هنا وعلى الرغم من النشاط الدينى والسياسى الجم لسرجيوس لن يبقى فى ذاكرة العقل الجمعى المصرى إلا صورة سرجيوس على منبر الأزهر خطيبًا فى ثورة ١٩١٩ ، ورمزًا للوحدة الوطنية ، حيث تستدعى صورة سرجيوس السابقة كلما هبت على الوطن حوادث طائفية ، لا سيما فى فترة السبعينيات التى شهدت تصاعد حدة هذه الأحداث .

ففى عام ١٩٧٢ والوطن جريح من هزيمة يونيو ، وفى طريقه لنصر أكتوبر ، شهدت مصر بعض الأحداث الطائفية العنيفة ، وخصصت جريدة الأخبار افتتاحيتها لاستدعاء التاريخ لعلاج هذه الأحداث ، حيث كان عنوان الافتتاحية : القمص سرجيوس وذكريات الوحدة الوطنية فى ثورة ١٩١٩ [١].

وقامت مجلة الشباب بنفس الشئ إذ نشرت موضوعًا تحت عنوان «مولانا القاياتى ، وأبونا سرجيوس» لتوعية الشباب بتاريخهم ، وإلقاء الضوء على مظاهر الوحدة الوطنية ، حتى تختفى الحوادث الطائفية [٢].

ولم تقف هذه الظاهرة عند حد الصحف القومية ، وإنما امتدت إلى الصحف الدينية المسيحية ، إذ خصصت إحدى هذه المجلات موضوعًا عن القمص سرجيوس ودوره فى الوحدة الوطنية فى ثورة ١٩١٩ تحت عنوان « الدين لله والوطن للجميع» ، وصفت فيه سرجيوس بأنه « قديس الوحدة الوطنية والثورة المصرية » [٣].

وفى عام ١٩٧٧ نشرت جريدة « الجمهورية » موضوعًا عن سرجيوس تحت عنوان «خطيب ثورة ١٩١٩» [٤]، وفى نفس العام أعادت مجلة «الفداء المسيحية » نشر ذكريات القمص سرجيوس عن ثورة ١٩١٩ ، ودوره فى الحركة الوطنية [٥]، مطالبة «بعودة الروح» مرة أخرى ، وفى عام ١٩٧٨ نشرت الصفحة الدينية فى

---

(١) الأخبار ١٥/ ١١/ ١٩٧٢ .
(٢) مجلة الشباب - ديسمبر ١٩٧٢ .
(٣) حامل الرسالة «اليمساجى» ١٢/ ١١/ ١٩٧٢ .
(٤) الجمهورية ٦/ ٩/ ١٩٧٧ .
(٥) الفداء ١٢/ ١٢/ ١٩٧٧ .

الأخبار صورة سرجيوس ، وأشادت به خطيبًا وطنيًا على منبر الأزهر ، مسترجعه بذلك لذكريات الوحدة الوطنية فى ثورة ١٩١٩ [١]، وفى عام ١٩٧٩ عندما بدأ الصحفى الكبير حافظ محمود كتابة ذكرياته عن «قصة الوحدة الوطنية» ، كانت صورة سرجيوس خطيبًا فى الأزهر إبان ثورة ١٩١٩ ، هى حجر الزاوية التى بنى عليها ذكرياته عن قصة الوحدة الوطنية [٢].

وهكذا أصبح سرجيوس ظاهرة مهمة فى تاريخنا المعاصر ، وأصبح استدعاء الدور التاريخى لسرجيوس عاملا من أهم عوامل مواجهة الفتنة الطائفية ، فضلا عن إبراز مدى أهمية التاريخ فى عودة الروح للوطن من جديد

* * *

(١) الأخبار ٤/٨/١٩٧٨ .
(٢) الجمهورية ٢٩/١/١٩٧٩ ، وقد أطلقت محافظة القاهرة اسم القمص سرجيوس على أحد الشوارع فى حى مصر الجديدة تكريمًا له .

الملاحق

ملحق رقم (١)

مذكرات القمص سرجيوس عن ثورة ١٩١٩

ليس القمص سرجيوس فى حاجة إلى تقديم، فهو الوطنى الغيور والمجاهد الذى كان من أول من نادوا بأن المسلم والقبطى إخوان فى الجهاد وفى محاربة الغاصب.

و« المصور » يسره أن يتحدث « سرجيوس الثورة » إلى قرائه الأعزاء.

سامحك الله ..

سامحك الله أيها الزميل المحترم رئيس تحرير « المصور » بما « تنكش »! إيه يا زميل! ما وظيفتك التى تؤديها الآن نحوى حين أرسلت إلى مندوبك يطلب منى أن أكتب ذكرياتى للحركة الوطنية سنة ١٩١٩م؟ أهى وظيفة « قلم مباحث » يهاجمنى فى وقت أحفر فيه قبراً فى أعماق العقل الباطن لأطمر فيه ذكرياتى لهذه الحركة الوطنية، فأردت أن ترشد عنى كقاتل لذكريات يقدسها الناس ويحترمونها؟!

أم محلل (نفسولوجى) أحسست بما أعانيه من جراء محاولاتى الجبارة لتناسى هذه الذكريات وطمرها فى قرارة العقل الباطن حتى رسبت فى أعماقه وأصبحت كالكبتات والعقد النفسية فأشفقت على كما يشفق المحللون النفسيون على أصحاب الكبتات والعقد النفسية فيضطرونهم إلى الاعتراف وتذكر الماضى ومآسيه، حتى إذا ما عادوا بالذكرى إلى الماضى وما اقترف فيه كانت هذه بمثابة تحليل لعقد النفس وكبتاتها، فيشعر المعترفون والذاكرون بالراحة ، مما يعانونه من الحالات النفسانية التى هى وليدة تفجر ذكريات مختزنة فى العقل الباطن قد ضغطت بالتناسى المقصود ولم يسمح لها بالطفو على سطح العقل الواعى ؟!

آلام وآلام

أم أدخل فى دور من الحكمة التى تستلزم أحيانًا إساءة الظن فأتهم رئيس تحرير «المصور» وهو الرجل الطيب القلب والسليم النية فأقول إنه « نكاش » « نباش » أحس بأن ذكريات الحركة الوطنية قد خمدت فى نفسى كما تخمد النيران إذا ما تركت وشأنها ، فأوشكت أن تنطفىء جمرتها الملتهبة ، فأرسل مندوبه يحمل محساس الفرن لإزاحة الرماد الذى يغطى أجيج تلك الذكرى - وهو أو' ، من يدرى أن تحريك هذه الذكريات وإطلاقها من معتقلها الذى لا يقل عن معتقلات السلطة العسكرية فى شدته وضغطه ، فيه ما فيه من آلام من الداخل وآلام فى الخارج .

فالآلام الداخلية تشتد حينما أذكر إخلاصى لبلادى ومواطنى وتضحياتى وكيف قوبلت ممن كان يعتقد فيهم تشجيع المضحين على المضى فى تضحياتهم !

أما الآلام الخارجية فمعلوم الطريق الذى تهجم منه ، وهو طريق القوم الذين امتازوا عنا بعدم نسيان الماضى والاحتفاظ بالذكريات . . الذين يذكرون لسرجيوس مواقفه وكيف أنه كان أول من نادى باتحاد العنصرين فتنفعهم الذكرى وتضر «سرجيوس» .

الرجل العاقل يعرف

والرجل العاقل فى عرف هذا البلد ينكمش والحالة هذه فلا يعود يذكر ، ولا يفكر فى هذه الذكرى ، وإلا كان كبراقش التى جنت على نفسها حينما أعلنت عن وجودها فافترسها الذئب!

وكيف لمثلى أن يذكر شيئًا عن مواقفه فى هذه الحركة بعد كل هذا ، وحضرة الزميل يعلم كيف أن بعض الناس إذا ما سقطوا من علو شاهق وبقوا بعد سقوطهم على قيد الحياة لا يعودون يذكرون حوادث الماضى مهما حاولوا استعادتها إذا ما سألهم سائل عنها ، وهكذا «سرجيوس» الذى كان يومًا ما واقفًا على قمة الحركة الوطنية يناجى رب الكنانة وأهل الكنانة ومحتلى الكنانة طالبًا إعلاء شأن الكنانة ورد مكانتها وعودة مجدها .

فماذا أفعل وقد أعطيت هذه المرة كلمة لمندوب « المصور » بأن أكتب قبل أن أكشف على ذاكرتى وأستطلع طلعها عما إذا كانت تقوى على استعادة شىء من «فيلم » التمثيل الذى مثله المصريون سنة ١٩١٩ ، فإذا بها أوصدت أبوابها وأنا أقرع عليها طالبًا أن تبيض وجهى أمام رئيس تحرير « المصور » فلم تبال بكلمة الشرف لأنها تختزن فى أعماقها كبتات أصابتها من عدم مراعاة الغير لكلمة الشرف ، فكأنى بها تقول لى : « دع عنك جنون الشرف لأنه عملة غير جائزة ولا متداولة فى هذه الأيام فيجب أن تحفظ فى دار الآثار ، ومخزنى المضغوط نعم الدار لهذه الآثار » .

كتاب الجيش

فصرت أضرب كفًا على كف طالبًا مخرجًا من هذا المأزق برًا بوعدى ، ويلوح لى أن الذاكرة أشفقت على فأشارت إلى « إشارة محزون ولم تتكلم » فاتجهت حيث صوبت إشارتها فإذا بى أجد بين أوراق مطوية دفترًا وقد طبع عليه (ARMY BOOK) كان قد أعطانيه ضابط المعتقل الذى كنت معتقلا فيه فى رفح سنة ١٩١٩ ، وبالاطلاع عليه وجدت فيه صورة هذا الخطاب :

« رفح فى ٢ مايو سنة ١٩١٩

حضرة صاحب الفخامة الجنرال اللنبى المندوب السامى فوق العادة

قضت الفرمانات أن القسيس الذى يقترف ما يستوجب السجن يسجن ببطريكخانته ، هذا ما منحته دولة الأتراك لبطريكخانتنا القبطية بمصر . أما دولة الإنجليز التى تباهى بالمحافظة على التقاليد وعدم التعرض للأديان فقد ألقت القبض على قسيس مصرى محترم من كل شعبه ومواطنيه بطريقة لا تسوغها القوانين الوضعية ولا السماوية إذ لقيت من الحراس من صنوف المعاملة السيئة ما لا يلقاه المجرم الأثيم .

ساقونى إلى سجن قصر النيل وهناك نمت على «البلاط» بينما غيرى من المعتقلين نام على الأسرة ! وكان (جردل) المواد البرازية إلى جانبى داخل الغرفة ! فلما نقلت إلى القنطرة ألقونى داخل (زنزانة) ضيقة كادت أنفاسى تزهق داخلها ،

والسجان يناولنى الطعام السخيف من طاقة كانت بالباب، فتناولته على (الأسفل) بالذل والامتهان !

ولست أدرى مسوغًا لهذا - إلا أنى رفعت صوتى فى مصر مظهراً عواطف وشعوراً ما أتيتم إلى بلادنا إلا بحجة إحيائها فينا ؟! أو لأنى أنادى باسم وطنى العزيز للحصول على الاستقلال والحرية التى سفك ملايين الرجال من البشر دماءهم فى سبيلها؟ وما كان ندائى إلا بالطرق السلمية المشروعة ؟! فإن كنت رجلا وطنيًا فلا تعيبوا على تمنيات قلبى الصالحة من نحو وطنى المفدى بالمهج والأرواح، ولقد سبقنى فى هذا المضمار أساقفة وقسوس كنيستكم الإنجليزية حينما تركوا مراكزهم وبيوتهم وأولادهم ولازموا ميادين القتال ليضرموا نار الحماسة فى نفوس مواطنيهم، وإن كنت رجلا دينيًا فلا تعيبوا على موقفى محتجًا على تلك الفظائع والقبائح التى صدرت من السلطة العسكرية التى تقول دولتها إنها ما خاضت حومة الوغى إلا لتحمى ضعيفًا من سطوة قوى، ولطالما أذعتم على الملأ اشمئزازكم من فظائع الألمان، الأمر الذى جعلنا نعتقد أنكم أمة تكره ما تقبح وتنكره على الغير، لذلك رفعنا الصوت عاليًا لنشكوكم إليكم لأن الدين الذى أنا خادمه، والمسيحية التى أنا أرفع لواءها تحتم على - بل تكرهنى على رفع صوتى ضد هذه الفظائع !

وإن لم أكن وطنيًا ولا دينيًا فكَرَجُلٍ ذى أسرة لى ما للوطنيين وعلىّ ما عليهم، فلا تعيبوا على إن أنا صرخت فى وجه هذه الفظائع التى كادت تتمشى فى كل المدن والقرى والشوارع، فكما وصلت إلى غيرى فلابد من وصولها إلىّ، وإن وقوعها على غيرى كان تأثيره على نفسى أشد مما لو وقع علىّ ذاتيًا ».

* * *

فماذا كان رد جنرال اللنبى على هذا الخطاب ؟

كان الرد أن تركنى (أرن) كل المدة حتى أغلق المعتقل وأخذت مفاتيحه ونزلت مع آخر من نزل من الاعتقال !

وهذا الخطاب اعتبرته الآن كمفتاح نوتة الذكريات وتداعى المعانى، وأنى أعدك أيها الزميل بأنى كلما طفا شيء من الذكريات على سطح العقل الواعى تصيدته «بصنارة القلم» ووضعته «فى شبكة القرطاس» وأرسلته إلى «حلقة» «للمصور».

وعدتك أيها الزميل المحترم أن أبعث إلى «الحلقة» ما أتصيده من الذكريات كلما طفا شيء منها على السطح، وكنت فى وعدى صادقًا، إلا أن الذاكرة خانتنى بتصميمها على «حرنتها» إلى هذا اليوم، رغم جلوسى على شاطئها أرقب ما يطفو، وأبت أن تنزل على رغبتى وإرادتى، وأنت يا ذا الزميل المحترم سيد من يعرف أن كل محاولة تبديها الإرادة لحمل الذاكرة على استعراض بعض الذكريات تزيدها نسيانًا أو تناسيًا، وقد علمنا الاختبار أن ترك المحاولة مع الذاكرة يجعلها «تيجى من نفسها».

لذلك تركت المحاولة وعمدت إلى النوتة (إياها) التى كنت أدون فيها ملاحظاتى وخطرات أفكارى فى المعتقل، فوجدت فيها صورة هذا الخطاب أيضًا:

بالرصاص لا بالأقذار

رفح فى ١٧ يونيو ١٩١٩

«حضرة صاحب الفخامة اللورد اللنبى المندوب السامى بمصر»

«كاد جسمى يبلى من ألم القذارة العالقة بقميصى الذى له على جسمى مدة ستين يومًا؛ لأنى لما طلبت ملابسى من القاهرة أرسلت إلىّ فى «شنطة» وبالسؤال عنها قيل لى بواسطة قومندان المعتقل إنها فقدت منهم فى الطريق، فإذا كنتم حكمتم علىّ بالإعدام موتًا بالقذارة التى لم يسبق لمجرم فى العالم المتمدين أو الهمجى أن مات بها، فأرجو استبدالها برمى الرصاص، لأنه أشرف لإنجلترا أن تميت قسيسًا رميًا بالرصاص من أن تميته معذبًا بالأقذار!».

«إن الرومانيين قديمًا كانوا يسقون الخل للمحكوم عليه بالصلب حتى يتخدر ولا يعود يشعر بشدة العذاب، وإذا ما رأوه لم يمت بعد ساعات معدودة كسروا

ساقيه ليعجلوا موته حتى لا يطول عذابه ، فهلا تعجلون أنتم على حياة قسيس صلبتموه مدة ستين يومًا فى قميص واحد ولباس واحد ، ودققتم فى جسمه مسامير الأقذار ، وبهذا تخففون آلام إنسانيتكم المعذبة فى شخصه ؟!

وإن اعتبرتمونى عدواً لكم ، فإنكم تعاملون مقاتليكم فى الميدان إذا ما جرحوا معاملة الشفقة فتحملونهم إلى مستشفياتكم » .

« وإن ترفعتم عن أن تعتبرونى عدواً لكم فاعتبرتمونى حيوانًا أعجميًا لا قسيسًا ولا خادمًا دينيًا ، فالحيوان إذا ما رأيتموه معذبًا بالأمراض تريحونه برمى الرصاص ، وكذا الكلاب أيضًا تغسلونها بأيديكم حتى لا تعذبها القذارة ! » .

« وأنا لا أستصرخ إلا ضميركم الذى لا يمكن للحركات العسكرية أن تستلب منه مبادئ الإنسانية مهما كانت الظروف » .

« واقبلوا فائق احترامى » .

اعتقال مفاجئ

وسبب إرسال هذا الخطاب أن السلطة العسكرية جعلت اعتقالى شبيهًا بموت السكتة ، ففى يوم جمعة عقب خطاب ألقيته على الموظفين ، طرق باب الشقة التى كنت أقيم فيها بالفجالة أحد رجال البوليس الملكى ، وكان ذلك فى ساعة الغداء ، وكنا فى حالة شروع فى قتل الطعام مضغًا ، وإذا به يدخل ويرى بعينيه الطعام فيقول بلطف مصنوع :

- هل تسمح بمقابلة جناب الحكمدار ثم تعود فى الحال لتناول الغداء لأنه هنا قريب فى قسم الأزبكية ؟

فهممت بالقيام معه ، وكأن قرينتى أحست بأن هذا رسول اعتقالى ، فألحت بتناول طعام الغداء أولا لتجعل من هذه الأكلة حفلة وداع ولكن أبى الرسول بأسلوبه (إياه) إلا أن يأخذنى كما يقولون « على لحم بطنى » ، ويظهر أن بينى وبينه ثأرًا قديمًا ، وربما كان حاضراً خطابًا كنت ألقيته فى أحد شوارع القاهرة وختمته بتنديدى بأمثال هذا الرسول ، فقلت :

ـ إنى إذا ما دخلت بيتى أضطر أن أخلع حذائى عند الباب وأنفضه لئلا يكون فيه جاسوس علىّ».

فأراد أن ينتقم منى ويشفى غلته فحرمنى تناول غدائى لعلمه واختباره أن حسرة البطن تبقى سنة وستة أشهر.

فاستمهلت قرينتى وذهبت معه إلى قسم الأزبكية حيث ألقى على أحد الضباط الإنجليز نظرة، ثم هز رأسه للأعوان هزة حركتنى إلى خارج القسم حيث كانت عربة فى انتظارى أقلتنى إلى المحافظة، ومنها أقلتنى سيارة بدورها إلى ثكنات قصر النيل، وهنا أودعونى غرفة فى الدور الأرضى وأغلقوا أبوابها بقفلين وأوقفوا عليها ديدبانًا إنجليزيًا يروح ويجىء وكان لغرفتى شباك من حديد، وكان هذا الديدبان لا يكتفى بذهابه وإيابه ووقع قدميه وقعقعة سلاحه، بل كان فى كل جيئة يطل علىّ من الشباك . . وفى إحدى «طلاته» وجدنى واقفًا أمام الشباك، فقال لى فى تحد وغيظ لم أعهدهما فى الدم الإنجليزى(ARE YOU FIGHTING) أى (هل أنت تحارب ؟) . . . وكانت الساعة الرابعة بعد الظهر عندما استقر بى المقام.

شاى قذر

وقد مر بك أيها القارئ أن تركت طعام الغداء فى بيتى، فتناولته فى تلك الساعة شايًا فى قصر النيل، وما أدراك ما الشاى وطقمه ! فى كوز من الصاج (إياه) فيه شىء أشبه بماء النيل فى أيام الفيضان وهو يحمل الطمى، فتجرعته لأبل ريقى فقط، وأما الغرفة فحدث عنها ولا حرج: فأرضيتها من البلاط القديم، وقد اصطبغ بلون السباخ الذى لفظته الأرض من بين «شفتى الأحجار» وهذا اللفظ له معناه الذى يدركه كل من كان ملمًا بالأمثال والأقوال المأثورة لأنها من قبيل القول: «ده شىء يخلى الأخرس ينطق» أما أثاثها فهو عبارة عن مربع خشبى موضوع فى زاوية من زواياها، وداخله جردل للبراز، وفى ركن أخر كومة من سوداء البطانيات (إياها) ويلوح لى أنها حضرت عدة معارك وانتقلت من قتيل إلى متطوع جديد، أو زارت عدة مستشفيات فجىء بها لترسل إلى دار الآثار الإنجليزية، فوضعت فى هذا المخزن الذى أؤتمنت عليه تلك الليلة . .

براغيث وبعوض

ولما قضيت ردحًا من الليل وأنا أروح وأجىء فى الغرفة كأنى والديدبان فرسا رهان، هو من الخارج وأنا من الداخل، هو يحرسنى لئلا أخرج بأعجوبة، وأنا أنتظر أن يؤتى لى بسرير وفراش لأنام فلم أفز بطائل، عمدت إلى كومة البطانيات وأنا بين متأفف ومتخوف فارتميت عليها طلبًا للراحة، ولم أدر أنها عشش لكمين من البراغيث والبعوض اللاذع، إذ قام على هذا الكمين وانقض على جلدى يمتص ما بقى فيه من دم، وعندها أيقنت أن الإنجليز قصدوا بهذه المداعبة أن يدفعوا عن أنفسهم اتهامًا قيل إنى وجهته إليهم، وهو قولى « لماذا كان وجه الإنجليز أحمر ؟» فأرادوا أن يثبتوا ببرهان عملى أن دم المصريين لم يمصه الإنجليز وإنما تمصه براغيث وبعوض مقيمة فى أرض مصر قبل دخول الإنجليز !

ولو كنت قد فطنت لهذه النكتة واستغفرتهم على هذه التهمة وقلت لهم : «البرغوت لا أنتم يا أسيادى » لكانوا ردونى إلى منزلى، وكان بلاش دى البهدلة اللى شفتها ولكن عند القدر يعمى البصر !

أربعون يومًا

وفى الصباح فتح باب الغرفة أحد الجنود ومعه ضابط، وقادانى إلى غرفة أخرى بها ضابط كبير من الإنجليز، فوقفت أمامه وهو ينظر فىّ متأملا ثم قال :

ـ إحنا طولنا بالنا عليك أربعين يومًا !

فقلت له :

ـ أنت لم تتحملنى فى بلادى أربعين يومًا ونحن احتملناكم أربعين سنة !

وأعطيته عرض كتفى وأخذت أروح وأجىء فى الغرفة وهو ينظر إلى شزرًا، والذنب ليس ذنبى لأنه لم يطلب لى كرسيًا بل « صهين » على وتركنى واقفًا حتى يجهز لى «الزوادة» ، وكانت عبارة عن كيس من القماش وضع فيه بعض (البقسماط) إياه وشاى وسكر وملعقة وشوكة وكوز من الصاج، وسلمنى الكيس فى يدى، ثم اقتادونى إلى سيارة فخمة كانت تنتظرنى، فركبتها وكان الجنود قد

تقدموا سيارتى فى (لورى) وعندها أيقنت بأنى منفى إلى خارج بلادى دون أن أتزود بنظرة من أولادى الذين لم يعلموا عنى شيئًا إلا بعد ثلاثة أيام، ودون أن يسمحوا لى أن آخذ شيئًا من الملابس غير التى كانت على جلدى ـ وكانت تستحق التغيير.

إلى حيث لا أدرى

وهكذا سارت بنا السيارة حتى وصلت إلى فناء محطة مصر الخارجى، وكان الجنود قد نزلوا من (اللورى) وأحاطوا بى عند نزولى من السيارة، ولما صعدت إلى سلم المحطة رأيت الجنود قد ابتعدوا عنى، ودخلت القطار وسط المسافرين والمودعين بحيث لم يشعر أحد بأنى معتقل ولا منفى من بلادى، حتى صاح صائح من عمال المحطة وقال:

ـ والنبى ما هذا يومك يا سرجيوس!

فاجتمع فى الحال كل من كان على الرصيف يودعوننى، وكان يحرسنى جنديان: واحد عن يمينى، والآخر عن يسارى، فقلت للمودعين لأخفف عنهم وأروح عن نفوسهم:

ـ أنا لست أفضل من سيدى المسيح الذى صلبوه بين لصين واحد عن اليمين والآخر عن الشمال.

فضحك الواقفون.

ثم استأذنت من الحارسين فى أن أشترى علبة سجاير فصرحا لى بذلك، وكانت العلبة من الدخان البلدى، فلما أشعلت واحدة وأخذت أدخنها أحسست بطعم لها غير مقبول فقلت:

ـ ائتونى بسجاير إنجليزى:

وكنت قد شربت علبة منها فى ضيافة قصر النيل طيلة الليلة، فأظهر المودعون استغرابًا وقالوا:

ـ كيف تشرب دخانًا إنجليزيًا!

فقلت :

ـ أنا أحرقه فقط !

ثم التفت إليهم وقلت :

ـ إذا كانت سجائرهم احتلت فمي ليلة واحدة فلم أستطع نزعها من فمي ، فماذا يكون حالنا معهم وقد احتلوا بلادنا أربعين عامًا !

وقام بنا القطار إلى حيث لا أدرى .

لا أعرف مصيرى

فى صباح السبت ٢٦ إبريل ١٩١٩ قام بنا القطار من محطة القاهرة إلى حيث لا أدرى . . كأن تذكرة سفرى التى لم تعط لى قد طبع عليها : من القاهرة إلى (. . .) على بياض ، فكنت الوحيد فى القطار الذى لا يعرف مصيره ، مع أن غيرى من المسافرين قد تحدد سفرهم فى تذاكرهم وفى أدمغتهم ، أما أنا فلا تذكرة « ولا دماغ» رسم فيه مصيرى الذى أنتهى إليه !

ولو كانت السكة الحديدية قد ابتدعت قطار المفاجآت لكنت أقول : « هى مداعبة من السلطة العسكرية كمداعبة السكة الحديدية لركاب قطار المفاجآت ؟ » .

وكأن السادة الذين اعتقلونى لم يكفهم لهفتى على بلادى وأولادى الذين لم أتمكن من وداعهم ، فأضافوا إلى لهفتى لهفة أخرى أشد وأنكى ، فهم يعلمون أن غريزة حب الاستطلاع تصب كل نشاطها وتبذله ثمنًا لمعرفة المصير الذى كانت لهفة داود النبى منصبة عليه عندما قال : «عرفنى يا رب نهايتى» ؛ لذلك عمد السادة إلى إخفاء مصيرى مدة العشرين ساعة التى استغرقها سفرى هذا .

دلالة البله

وكنت أخشى أن يسألنى أحد : « إلى أين أنت ذاهب؟ » فأقول له : « لا أدرى» . . . وفى هذا ما فيه من دلالة البله الذى ما كنت لأرضاه لنفسى . . ولكن

من أنا حتى لا تمر على الظروف التى أقف فيها موقف الرجال الأتقياء المخلصين الذين شعروا فى ظروفهم الحرجة هذا الشعور الذى اضطرهم أن يقولوا ما قاله داود النبى : « وأنا بليد لا أعرف صرت كبهيم عندك » فصرت أنا الآخر عند السادة الإنجليز ، وفى ضيافة معتقلاتهم ، بليدًا لا أعرف من حروف الجر إلا حرف «من » فأحاول وأعصر فكرى لعلى أعثر على حرف « إلى » وما يليه فلا أستطيع . . وهكذا شاء الأسياد أن أكون بليداً حتى وصلت إلى مقر الاعتقال .

وكان خبر اعتقالى فى ذلك اليوم قد انتشر فى جميع المحطات ، فقابلنى الكثيرون من المواطنين ورأونى جالسًا بين جنديين إنجليزيين فاغرورقت عيونهم . . فقلت فى نفسى إن «القوم عيونهم مدمعة» على كلمتين منى ، وعلى رأى المثل : «يموت الزمار وأصابعه ترف » فاستأذنت الحارسين فى أن يسمحا لى بالكلام مع هؤلاء المودعين لكى يخابروا عائلتى لترسل لى بعض الملابس واللوازم ــ وكان الحارسان من النوع (سد بلاده) لا يعرفان اللغة العربية ، ولاسيما لغة الخطابة التى من نوع « الشورت هاند » ، فكنت أخطب المودعين بجمل مختصرة حماسية ربما كانت هى التى أذاعها عنى مواطنى وما زالوا يتحدثون بها إلى اليوم .

جاء الجد

وهكذا كنت أستغل « عجموية » الحارسين التامة فى الخطابة فى كثير من المحطات ، حتى وصلنا بعد الظهر إلى محطة القنطرة ــ وهنا راح الهزل وجاء الجد ، فتبدل قطار السكة الحديدية ودرجتها الأولى بقطار الرجل إذ سرت مشيًا على القدمين ! وبعد أن كان كيس (الزوادة) و(الزمزية) والبطانية السوداء محمولة فى اللورى والقطار مع الجنود ، (شافت دلالها) الآن وأقسمت إلا أن تتبوأ مكانها اللائق على كتفى « فأحنيتها طائعًا وحملتها مختاراً وقد لعب الخيال دوره ليخفف الوطأة عنى ، فصور لى يسوع المسيح وهو حامل صليبه الخشبى الثقيل . . فخفف حملى ولاسيما عندما أيقنت أن ما فى الكيس طعام وليس موتا زؤاما « إن لم تحمله الكتف فستحمله المعدة » .

وما رآنى الموظفون المصريون الذين كانوا وقوفًا فى محطة القنطرة حتى هاجوا وماجوا وصعد الدم يغلى فى رءوسهم، فتقدموا وحاولوا أخذ الكيس والبطانية عن كتفى ليحملوها بدلا عنى إلى حيث يستقر بى المقام. ولكن قومًا لا هم بالإنجليز ولا هم من المصريين، أرادوا أن يكونوا كاثوليكيين أكثر من البابا، وملكيين أكثر من الملك، فمنعوا المتطوعين عن حمل الكيس والبطانية، مع أن اليهود ارتضوا أن يحمل القيروانى صليب المسيح ! !

وكانت نتيجة هذا التدخل - أو التنطع من جانب هذا النفر الصفيق - أن حدث هرج ومرج وتظاهر وهتاف وخلاف لا أعلم كيف انتهى ؛ لأن حراسى الذين سلمونى « بالسركى الجديد » وأعطوا الإيصال اللازم بوصولى، كانوا قد أخذونى فى الحال وساروا بى إلى «قشلاق» بنى بأحجار بلادى وبلاط بلادى وأيدى العاملين من بلادى، وهناك أدخلونى فى زنزانة طولها متران «وحتة» وعرضها متر و«حتة»، أرضيتها إسفلت، وليس بها ما يستقر عليه السجين سوى عود من الحديد مكسح ومثبت فى الحائط ليستند السجين إليه إذا ما أعياه الوقوف وأقض مضجعه الإسفلت.

على الأسفلت

أما أنا فكان التعب قد أعيانى فانطرحت على الإسفلت، وجعلت من عمامتى وسادة، وكانت بحمد الله من الطراز القديم (إياه) ذى الطربوش المغربى والطيات الثلاث المحبوكة من شال أسود حريرى، صنع المحلة « ثقيل الوزن » فاصطدمت هى مع الإسفلت وحمت رأسى من هذا الصدام.

وبينما أنا أفكر فى تقديم الشكر لعمامتى على هذه الوقاية « والحماية » إذا بها تغتنم الفرصة وتسبقنى بالتحدث إلى مخى الذى كانت تلاصقه، وألقت على درسًا عنوانه : « اللى تكرهه اليوم تعوزه بكره » ، فقالت : « ألا تذكر يا سرجيوس مقالك الذى نشرته فى السودان بمجلتك « المنارة »، وفيه حملت على حملة شعواء شبهتنى فيها بالقبر مدفن العقول، وكيف هزأت الطربوش الأحمر والزر الأزرق

والشال الأسود وتمنيت لو أنى أحرق بالنار حرقًا؟ انظر اليوم كيف صرت لك » بمجموع التراكيب الداخلة على « كوسادة لينة أحمى رأسك من الإسفلت ! فلو كان الأقباط وافقوك على التنازل عنى فليست قبعة إفرنجية، هل كانت تنفعك اليوم ببصلة، وهل كانت تحمى رأسك من قساوة الإسفلت الإنجليزى.

فقلت لها: « ويحك يا سوداء يا رقيق ! ! أتريدين أن تتخذى من ضيقى فرصة للإغراء والرجوع عن محبة الوطن، هل دسك الإنجليز فى رأسى حتى توسوسى لى هذه الوسوسة وتقنعى بأن الإنجليز الذين نكرههم اليوم سنحتاج إليهم غدًا، أو إنك تريدين أن تعطى الإنجليز درسًا فى الاعتقال بأن المصريين الذى تكرهونهم اليوم وتشردونهم وتنكلون بهم تحتاجون إليهم غدًا !

اسمعى يا سوداء

« أم إنك تريدين أن تحملينى جميلا لأنك صرت لى وسادة ؟ ! اسمعى يا سوداء يا رقيق، لو أننى ألبس الآن قبعة ما كنت الآن ملقى على الإسفلت، ولا احتجت إليك، بل كنت على الأقل فى سجن دعوه فى بلادى (سجن الأجانب) مفروشًا محترمًا، ولكن لأننى ألبس عمامة بلدية نظيرك فهأنا فى زنزانة بلدية أحتاج فيها إليك . . فهلا يكفينى هذا الاستعباد الذى أنا فيه، حتى تأتى الآن بصورة أخرى من الاستعباد فتأسرينى بمعروف تظنين أنك قد فعلتيه بى مع أنك مشتراة بمالى - والعبد وما ملكت يداه لسيده ! ! ».

إلى المنفى

وفتح (شاويش) الباب وقال: come out

فما خرجت من الزنزانة حتى التفت حولى حاشيتى المؤلفة من الجنود إياهم يتبعوننى وأتبعهم إلى قطار آخر قد أعد فى المساء.

وقام القطار إلى غير طريق مصر، واتجه بى اتجاهًا لا يطمئن، وكان الظلام قد أرخى سدوله وخص القطار بقسط أوفر من طبقاته الحالكة، فكنت لا أرى الجنود

الذين حولى وكان الصمت عميقًا فخيل إلىّ أنى فى عالم الأموات مشيع إلى الأبدية، والقطار يسير بنا متثاقلا كما يتثاقل المشيعون لنعش صديقهم أو من يعتقدون فيه الولاية . . وهكذا سار القطار فى بطء وتلكؤ فى ظلام وصمت حتى وافت الساعة الثانية بعد منتصف الليل، فوقف القطار وتحركنا نحن بالنزول وسط رمال كأنها معدة لدفن الميت المحمول إليها فى هذا القطار.

سرت إلى جانب الحارس أخوض الرمال وأسلك وسط أسلاك شائكة تحيط بمربعات كبيرة من الأرض، وأسمع كل بضع خطوات قعقعة سلاح، وصوت منا: «HAIT YOU THERE» فيقف الحارس فأقف معه حتى يعطى كلمة السر فنمر فى طريقنا الوعرة وسط رمال هى بمثابة الورطات التى تعترض الإنسان على طول الخط، فكنت إذا خلصت رجلا دفنت الأخرى، وهكذا حتى عييت، وحتى وصلنا إلى خيمة حارس المعتقلات، فأدخلنى إلى خيمة لأبيت فيها إلى الصباح حتى يستيقظ قومندان المعتقل، وكانت الخيمة خالية خاوية إلا من أكوام الرمل، وكانت تخيلات النهار قد أوجدت عندى استعداداً لأن أدفن فى هذه الرمال وأكفن نفسى ببطانيتى السوداء ، ووضعت كيس الزوادة إلى جانبى كما كان يضع أجدادى الفراعنة زاداً عند قبور موتاهم، أما العمامة فلا يصعب عليها منى لأنها أدت وظيفتها على الوجه الأكمل مرة أخرى وقامت بواجب الوسادة « كما على الإسفلت هكذا فى الرمال أيضًا ».

فنمت هذه المرة نوم أهل القبور، إذ غطانى الرمل ودخل فمى وعينى وأنفى، ولكنى استيقظت على صوت منكر ونكير مع أنى مسيحى لا أعتقد بهما، ولكن لأنى سايرت الأكثرية عوملت معاملتهم، وشرط المرافقة موافقة والمجالسة مجانسة ؛ فانتبهت فإذا بى واقف أمام ضابط إنجليزى أخذنى ودخل بى المعتقل.

تنبيه واحد

وفى الدهليز أوقفونى أمام ضابط المعتقل، فأخذ يتفرس فى جميع محتوياتى من قمة الرأس إلى القدمين.

ولما أتم (فرزى) على الطريقة الإنجليزية انهال على بالتنبيهات التى لا أعلم هل كانت عامة تلقى على كل وارد إلى هذا المعتقل، أم هى خاصة بى اقتضاها المقام كنتيجة للتفرس الطويل فى وجهى وتركيبى !!

ولم يبق فى ذاكرتى من تلك التنبيهات إلا تنبيه واحد ستدوم ذكراه إلى نهاية الحياة، أذكره كلما ذكرت الموت أمامى، وهذا التنبيه هو :

« أنت حر تروح وتجىء فى هذا المربع الواسع، ولكن إياك أن تقترب من هذه الأسوار الشائكة واحرص على أن تكون دائمًا بعيداً عن السور، فإذا اقتربت منه رماك الديدبان بالرصاص »!!

فقلت فى نفسى :

- إن الموت بالرصاص محتوم داخل هذا المعتقل المشئوم، إذ من ذا الذى يرى نفسه محجوزاً داخل قفص من الأسلاك الشائكة وتمتد أفكاره إلى ما وراء الأسلاك بعيداً حيث الوطن والعائلة ولا تستطيع رجلاه متابعة أفكاره وتصوراته إلى حيث يهوى فيندفع كالقاطرة متحركًا بقوة ما يتصاعد من أبخرة الحزن والألم، وهو يروح ويجىء فى طول المعتقل وعرضه ثم تغشى عينيه سحابة الهموم فيرتطم بالأسلاك وهو لا يدرى !!

كمن ينوح على أمه

لقد أعطانى الحرية فى أن أروح وأن أجىء . . ولكنه كان كمن أعطى باليد الواحدة ويسلب بالأخرى، إذ قد سلب هذه الحرية بهذا التهديد الذى يقعدنى عن الرواح والمجىء، اللهم إلا إذا كنت أغلق أبواب الفكر وألجم التصور عندما أتمشى فى طول المعتقل وعرضه، فلا أسمح لهمٍّ يباغتنى أو حزن يساورنى لئلا تعمى عيناى ويغيب صوابى، فأرتطم بأسلاك السور فأموت رميًا بالرصاص وأنا لا أدرى!!

وما فائدة الرواح والمجىء وقد جعل كمخفف لعبء الهموم، بل هو حركة ناشئة عن الحزن والألم، وقد كانت هذه عادة داود النبى فى حال همومه، إذ كان يتمشى

كما قال فى المزمور : « كنت أتمشى كمن ينوح على أمه ».

ولست أدرى كيف قضيت مدة ثمانين يومًا فى المعتقل ولا كيف كنت أتمشى ذاهبًا آتيًا فى هموم وآلام دون أن أصطدم بأسلاك السور ودون أن يتمكن الديدبان من رمى بالرصاص ! !

استقبال ومظاهرة

وبعد أن أتم الضابط تنبيهاته أدخلنى إلى المعتقل، فإذا بى أرى مكانًا قد ضرب عليه نطاق من الأسلاك الشائكة وقد نصبت على أرضه عشرات الخيام وفرشت الأرض بالرمال فرشًا طبيعيًا لأننا فى أرض صحراء تعج فيها أمواج الرمال وتجيش، وإذا بجماعة تقبل على وهى تخوض الرمال خوضًا فإذا بهم يهتفون :

ـ يا نهار أبيض ! الأب سرجيوس أهو حصلنا ! يحيا الأب سرجيوس !

وكانت مظاهرة وكانت هتافات !

ولكن المتظاهرين فى هذه المرة كانوا قليلين، أذكر منهم حضرات على بك عمر، وفؤاد بك شرين، وأحمد فريد بك، ومحمود أفندى فهمى النقراشى، ومحمد أفندى زكى عمر، وحسين أفندى فتوح، ومحمد أفندى عبدالحميد سالم، وكلهم بوزارة المعارف ـ وكان بينهم الضابط حمدى أفندى الرشيدى المعروف (بالحاوى) صاحب القصيدة « مدد يا رفاعى مدد ».

فقادونى إلى خيمة كبيرة دعيت « بالكلوب المصرى » وصارت مجتمعًا لنا فجلسنا نتحدث فى مختلف الشئون والحديث ذو شجون . .

الغداء !

وفى الظهر نادى مناد ـ وكان من أسرى الجيش التركى ـ وهو أناضولى : الغداء !

فقاموا وقمت معهم، ودخلنا خيمة قد أعدت فيها مائدة مستطيلة ووضعت إلى جانبيها (دكتان) طويلتان . . . فجلسنا . . . فقدم إلى كل واحد منا رغيف « فينو » لا يزيد طوله على كف اليد ولا يزيد خط دائرته على الإصبع، وقيل لى : إن هذا الرغيف مئونتك لمدة ٢٤ ساعة .

فتناولت السكين من على المائدة وشعرت بحاجة إلى « مسطرة » لأقسم الرغيف قسمة عادلة متساوية حتى لا يغبن الفطور الغداء ولا الغداء العشاء . . . فلما قسمت الرغيف إلى ثلاثة أقسام ظهر كل قسم منه غير كاف لسد الرمق . . . فقلت إن الخضار واللحوم والأرز والحساء تسد مسد الخبز الكثير ، ولا تلمنى أيها القارئ على كل هذا التفكير لأننى وأنا أكسر الرغيف وجدت فى لبابه ما وجدت من خراب ذمة المتعهدين والخبازين ، فصرت أنتزع اللباب من الرغيف مكتفيًا بقشرته اللطيفة لأنه خبز إفرنجى يسمونه « فينو » .

وكان أملى أن أملأ فراغ الرغيف من حشو لطيف فإذا بالخضار خيار محشو وإذا بالحساء مرقة « بولبيف » هى غسالة اللحم أو بالأحرى الدم السائح من جبين «البولبيف » المطبوخ فى هذه المياه . . وأما اللحم فهو لحم الكفرة الدهريين . . ولا يخيب ظنى إن قلت إنه من « الأنتيكخانه » أو من لحم البغال التى حضرت مع الإنجليز حرب نابليون ، وأرادوا الخلاص منها مع تسجيلها كأثر تاريخى فى معدة المعتقلين المصريين ! !

شبه حسنة

وإنى لا أغمط السادة حقهم بل أعترف لهم بما قدموا لنا من شبه حسنة ، فقد قدموا لنا فى خمسة عشر يومًا فطورًا من الجبن (والمربة) والزبد وإن كان أحدنا قال :

ـ دى حاجات قديمة وكان لا بد من تصريفها على حساب الحكومة .

وذلك لأننا كنا معتقلين بأمر السلطة العسكرية ، ولكن أكلنا ومصاريف خدمتنا كانا على حساب الحكومة المصرية التى كانت تدفع يوميًا (١٦,٥) من القروش لكل معتقل ، تدفعها عدًا ونقدًا للسلطة العسكرية وهذا بيانها :

خمسة عشر قرشًا للأكل والشرب وقرش ونصف قرش أجرة خادم لكل معتقل منا ، وهؤلاء الخدم من أسرى الجيش التركى ومعظمهم من إخواننا الفلسطينيين وبعض من الأناضول .

أما بقية المبلغ فكنا نتمنى لو أن السلطة العسكرية تأخذ منه عشرة قروش (ولو بصفة غرامة وتأديب) وتعطى كل واحد منا خمسة قروش وتتركنا أحراراً نأكل ما نشاء ونشترى ما نشتهى ولكن هكذا قدر علينا أن نعيش مدة هناك مخالفين القول المأثور : « كل ما يعجبك والبس ما يعجب الناس » فكنا نأكل ما لا يعجبنا ونلبس ما يعجب السلطة . .

القمص سرجيوس

ـ نشرت فى مجلة المصور أعداد :

ـ (٥٥٩) الجمعة ٣ إبريل ١٩٣٦ .

ـ (٦٠٠) الجمعة ١٠ إبريل ١٩٣٦ .

ـ (٦٠٣) السبت ٣ مايو ١٩٣٦ .

ـ (٦٠٦) الجمعة ٢٢ مايو ١٩٣٦ .

* * *

ملحق رقم (٢)

خطاب من بطريرك الأقباط إلى فؤاد الأول سلطان مصر

حضرة صاحب العظمة فؤاد الأول سلطان مصر أيد الله عرشه . . أيها المولى المفدى ، نقدم لعظمتكم واجب الاحترام والإجلال متضرعين إلى بارى البرايا أن يديم شخصكم العظيم عونًا لرعاياه المخلصين . . وبعد ، فقد وصل إلى مسامعنا أنه أول أمس ألقت السلطة العسكرية القبض على القمص سرجيوس وأجرت اعتقاله وأرسلته لجهة لا علم لنا بها .

كنا نود يا صاحب العظمة أن نقف على الأسباب التى أوجبت نفى القمص الموماً إليه ونبلغ ذلك بواسطة السلطة حسب القوانين المرعية والامتيازات الخاصة برجال الدين ، حتى بذلك كان يتثنى لنا النظر فى أمر المذكور وتوقفه عند حد « إذا كان حقًا قد أتى أمراً يضر بالمصلحة العامة » .

وحيث إن السلطة لم تراع ذلك إما جهلا بهذه الامتيازات المعطاة لنا أو أنها تعلم ذلك وبنته على الأحكام العرفية أو غيرها وأظن أن هذى الطوارئ لا تمنع نفاذ ما هو مشروع ومعمول به من قديم العهد ، لذلك جئنا بهذا راجين مولى البلاد التوسط لدى السلطة برجوع القمص المذكور وتسليمه لنا حتى ننظر فى أمره ولنا ملء الأمل فى إجابة طلبنا .

أدامكم مولى الأنام بالعز والرفاهية مدى الأيام مؤيدا عرشكم بقوته الصمدانية على الدوام .

تحريراً بالبطريركية ١٩ برمودة ١٦٣٥

٢٧ إبريل ١٩١٩

بطريرك الأقباط الأرثوذكسى

ختم

ـ دار الوثائق القومية ، محفظة (٥٤٥) عابدين التماسات .

ملحق رقم (٣)

تلغرافات بخصوص مشكلة القمص سرجيوس

مع البابا كيرولس الخامس

حضرة صاحب العظمة مولانا السلطان

أتقدم لعظمتكم بالتهانى بحلول عيد رأس السنة السعيدة متمنيًا بأن يعيده على عظمتكم السنين العديدة ، وأنتهز هذه الفرصة بأن أضرع لعظمة مولانا بأن لا تسمح عنايته بتفضيل شخص طرد من زمرة الكهنوت بأحكام دينية عالية عن غبطة الشيخ الجليل الوقور الأب البطريرك ، وبتفضيل فرد لا قيمة له على أمة بأكملها تخضع لعرش عظمتكم وصدور الأوامر العالية بعدم تسليم كنيسة القللى لشخص ساقط معروف لدى عظمة مولانا وللجميع بترهاته وأكاذيبه وشعب القللى الذى يربو على السبعة آلاف نفس الآن يلهج بالدعاء والصلاة بها لتأييد عرشكم وطول عمركم .

٢ سبتمبر ١٩٢١م

القمص بطرس عبدالملك

رئيس المجلس الملى العام بمصر

حضرة صاحب العظمة مولانا السلطان

الكهنة والمضيفون بدير العربان بمعصرة حلوان يحتجون بشدة على تهاون الحكومة فى تنفيذ قرار المجلس الملِّى بشأن تسليم كنيسة القللى الأرثوذكسية للدار البطريركية ويطلبون الإسراع بتنفيذه حفظًا لكرامة الرياسة الدينية وانتصاراً للعدالة.

حلوان ١٣ سبتمبر ١٩٢١م.

- دار الوثائق القومية، محفظه (٥٤٥) عابدين، تلغرافات الديوان العالى السلطانى.

ملحق رقم (٤)

بيان من القمص صليب ميخائيل وكيل البطريكخانة

(تجريد وفرز القمص سرجيوس)

حيث إن القمص سرجيوس كان قد صدر حكم من المجمع الإكليركى العام المقدس فى سنة ١٩٢٠م بتجريده من رتبة الكهنوتية لما ثبت عليه من التهم المدونة فى حكم المجمع، ومن بضعة أشهر أرسل الشفعاء إلى غبطة البابا المعظم البطريرك ملتمسًا العفو ومتعهدًا بالتوبة وانتهاج سبل الاستقامة والعدول عن نهش الأعراض والطعن فى كرامات الناس فى مجلته وخطبه فقبل غبطة البابا رجاء الشفعاء رحمة به وبأولاده ولكنه لم يلبث وقتًا حتى عاد إلى خطته الأولى وخصص مجلته للطعن فى المجلس الملِّى العام تارة وفى الآباء المطارنة تارة أخرى علاوة على الشغب الذى أحدثه أمام غرفة اجتماع المجلس الملِّى وقد قدمت له النصائح الكثيرة فلم ينتصح بل تمادى فى غوايته وسمح لقلمه بكتابة أقذر الألفاظ مما لا نحو لعلمانى فضلا عن كاهن أن يكتبه فلذلك ويأسًا من إصلاحه أصدر لى غبطة البابا المعظم البطريرك أمره الكريم بإعلان تجريده من الرتبة الكهنوتية وفرزه من الكنيسة القبطية الأرثوذكية.

فعلى أبناء الكنيسة المباركين إكليروسا وشعبًا ألا يخالطوا هذا الشخص عملا بالنصوص الكتابية ولا يطالعوا مجلته البذيئة لما فيها مما يخدش وجه الآداب والفضيلة وعلى أبناء الطاعة تحل البركة.

وكيل البطريركية **« القمص صليب ميخائيل »**

ـ المنارة ٣/ ٧/ ١٩٣٦، (نشر فى الصحف بتاريخ ١٥ مايو ١٩٣٦).

ملحق رقم (٥)

مصر في ٢ مايو - (تلغرافيًا)

حضرة صاحب السمو الملكى رئيس مجلس الوصاية مصر

حضرة صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء مصر

الشعب القبطى الذى يربو عدده على الثلاثة آلاف ذهب إلى بطريركية الأقباط يحتج على إعلان تجريد القمص سرجيوس من الكهنوت بطريقة تتنافى مع قوانين الكنيسة ومبادئ العدالة فاستعانت حاشية البطريرك بقوة البوليس فحالت بيننا وبين الاتصال برئيسنا الدينى الذى أصبح فى حالة لا تمكنه من تصريف أمور شعبه نظراً لشيخوخته وما زالت قوة البوليس تحيط بالبطريكخانة لحراستها، فنلتمس اتخاذ إجراء حاسم لإيقاف هذه الفوضى وللمحافظة على تنفيذ القوانين الدينية فى قضية القمص سرجيوس حتى لا يذهب ضحية الدسائس فى عهد الحرية والدستور.

عنهم وليم سرجيوس المحامى

- المنارة ٢٩ / ٥ / ١٩٣٦ .

ملحق رقم (٦)

تلغراف سراى القبة فى ٢٩ ديسمبر ١٩٣٧

الشعب المنياوى جميعه من أعيان وأطباء ومحامين ومهندسين وتجار وموظفين قد استدعوا القمص سرجيوس لتأسيس كنيسة قبطية مصلحة وافتتحوها مبدئيًا فى سرادق جنازة الأربعين للمرحوم جرجس جريس ، فتعسفت الإدارة معنا وطردت ألوف الشعب من السرادق ومنعت الأب سرجيوس بالأمس من إلقاء العظة الدينية مع أن سعادة المدير صرح لنا بهذا رسميًا ثم عاد فأمر بمنع الاجتماع مخالفًا بذلك حرمة الأديان ، وحتى قانون الاجتماعات الذى يقضى أن يصل أمر حل الاجتماع قبل ميعاد انعقاده بساعتين على الأقل إذ هاجم البوليس الاجتماع فى ميعاد انعقاده . الأمر الذى تفجرت له عواطفنا الدينية والوعظ بالكنيسة المختصة ؛ لذلك نرجو عمل اللازم لعدم التعرض لنا فى حريتنا الدينية مرة أخرى وإننا نحتج بشدة على الإجراءات التى يتبعها الأنبا يؤنس ضد المجلس الملّى العام ولائحة سنة ١٨٨٣ م التى أقرها البرلمان ونؤيد بكل قوة الحركة الرشيدة التى تحت رئاسة صاحب المعالى نجيب باشا غالى .

ـ دار الوثائق القومية ، محافظ عابدين ، محفظة (٥٤٥) .

ملحق رقم (٧)

صورة الخطاب البطريركى بتعيين القمص سرجيوس وكيلا للبطريركية

حضرة الابن المبارك القمص مرقس سرجيوس باركه الرب، بعد منحكم البركات وإمدادكم بصالح الدعاء بنعمته تعالى تكونون بخير .

قد رأينا تعيين بنوتكم وكيلا عامًا للبطريركية فى المركز الذى خلا باستقالة ولدنا المبارك القمص سيداروس غالى لأسباب صحية . وذلك من تاريخه . وقد أبلغنا الديوان البطريركى والحكومة بذلك .

وإننا إذ نسند إلى بنوتكم أعباء هذه الوظيفة ، فنحن على ثقة بأن ما حباكم الله به من مقدرة دينية وكفاءة ممتازة كفيلان بأن تقوموا بما أوكلنا إليكم من أعمال وظيفتكم بما يريح خاطرنا ويسموا بهذا المركز إلى المكان اللائق بكرامة الكنيسة وعظمتها .

والله القادر على كل شيء يساعدكم ويعضدكم ويشملكم بنعمته ورحمته ولعظمته تعالى الشكر دائمًا .

يوساب الثانى

بابا وبطريرك الكرازة المرقسية

الإسكندرية فى ٧ بابه سنة ١٦٦٦ ـ ١٧ أكتوبر ١٩٤٩م

ـ المنارة ٢٦/١٠/١٩٤٩ م .

ملحق رقم (٨)

قرارات المجلس الملى العام

بجلسته غير العادية المنعقدة يوم الأحد ٦ يناير سنة ١٩٥٢م

نظر المجلس فى أحداث السويس . وتلى التلغرافات المرسلة من المطران إلى ديوان جلالة الملك والوزارة وغبطة البطريرك .

وتناقش المجلس فيما يجب اتباعه فتقرر :

أولا : الموافقة على إعلان الحداد العام فى أنحاء المملكة المصرية ونشر الإعلان الآتى بالصحف « يعلن المجلس الملّى العام للأقباط الأرثوذكس أنه قرر بجلسته المنعقدة فى مساء يوم ٦ يناير سنة ١٩٥٢م إعلان الحداد العام بسبب الحوادث المحزنة المفجعة التى وقعت بمدينة السويس يوم الجمعة الموافق ٤ يناير سنة ١٩٥٢م وعلى ذلك لن تكون معايدة فى هذا العيد فى جميع أنحاء المملكة المصرية » .

ثانيًا : عرضت الاقتراحات الثلاثة الآتية المقدمة من أحد حضرات الأعضاء ووافق المجلس عليها بالإجماع وهى :

(١) يستنكر المجلس الملّى العام استنكاراً شديداً ما حدث بالسويس من حرق الكنيسة وقتل بعض الأقباط وحرقهم، وتبليغ هذا الاحتجاج إلى ديوان حضرة صاحب الجلالة الملك ورفعة رئيس الحكومة ومعالى وزير الداخلية .

(٢) المطالبة بإجراء تحقيق دقيق ومعاقبة المسئولين وتعويض أهالى القتلى فضلا عن الخسائر المادية .

(٣) مطالبة الحكومة باتخاذ الإجراءات السريعة الحازمة لمنع تكرر هذه الحوادث .

برقيات مطران الشرقية

(١) إلى معالى وزير الداخلية

إن كان حرق الكنائس بالقنال يساعد على طرد العدو فالسكوت أمانة، ولكن حرق كنيسة السويس تعد الشهيدة الأولى التى أحرقت بيد المصرى الخائن.

مطران الشرقية

(٢) إلى معالى رئيس الديوان الملكى

بالأمس تعدى المصرى على أخيه المصرى وحرق الكنيسة المصرية بالسويس فى الوقت الذى فيه تنادى الحكومة وعلى رأسها جلالة الملك بالتضامن والاتحاد. يا ترى ما العمل؟ ساحة الله وصدر المليك إليهما الالتجاء من هذا العدوان الصارخ والظلم الفادح والمأساة المتكررة التى لا تنسى.

مطران الشرقية

(٣) إلى غبطة البطريرك

أخبرتنا جمعية السويس ليلا بالتليفون بحرق الكنيسة وكان فى وسعى التصرف بشدة حتى الموت ولكن نسبة للظروف القاسية التى تلحق مصر اليوم تركت المسألة لغبطتكم والأمر لله ومنه نطلب العوض.

مطران الشرقية والمحافظات

ملحق رقم (٩)

برقية القمص سرجيوس إلى معالى رئيس الديوان الملكى

مصر فى ١٠ يناير ١٩٥٢م

معالى رئيس الديوان الملكى بمصر

اسمحوا لأنفاس الأقباط المروعين أن تلفظ أمام الأعتاب الملكية قبل أن تذهب لخالقها شاكية حرق الأحياء منهم وجرهم كالكلاب فى شوارع السويس، وحرق كنيستهم أمام رجال الأمن وهذا عار لا يمحوه إلا استقالة الوزارة التى حدث فى عهدها دون أن تحاكم رجال الأمن المستهترين وإعادة التحقيق ورفع الاضطهاد عن الأقباط لأن التمييز بين مسلم وقبطى جعل الرعاع يستخفون بدماء المسحيين ويزيدهم النحاس باشا استخفافًا بضغطه على الأقباط ليقبلوا مبلغًا من المال ويعتبروا الحادث منتهيًا كما حدث لكنيسة الزقازيق ليستقبل الأقباط حوادث أخرى أشد وحشية .

عن الأقباط

القمص سرجيوس

ـ منشور منفصل وزع مع مجلة « المنارة » عدد ١٤ يناير ١٩٥٢ .

المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

أولا : الوثائق غير المنشورة :

- دار الوثائق القومية : مَحافظ عابدين ، محفظة ٥٤١ ، ٥٤٥ .

ثانيًا : المذكرات :

أ ـ غير المنشورة :

- المذكرات الخطية للقمص سرجيوس : صورة لعدة ورقات من هذه المذكرات قدمها لنا الدكتور سليمان نسيم أستاذ التربية القبطية والصديق القديم لسرجيوس .

ب ـ المنشورة :

- القمص بولس باسيلى : ذكريات فى نصف قرن ، القاهرة ، ١٩٩١ .

ثالثًا : مقابلات شخصية :

- لقاء شخصى مع إبراهيم هلال بمكتبه بشارع الجمهورية ، ديسمبر ٩٥ ، إبريل٩٦ .
- لقاء شخصى مع القس إبراهيم عبد السيد ، ديسمبر ٩٥ .

رابعًا : الدوريات :

- الاثنين : عام ١٩٤٩ .

- الأخبار : سنوات ۱۹۷۲ ، ۱۹۷۸ .
- الإخوان المسلمين : عام ١٣٥٣ هـ/ ١٩٣٤ م .
- الأهرام : عام ١٩٦٤ .
- الجمهورية : سنوات ۱۹۷۷ ، ۱۹۷۹ .
- حامل الرسالة «ليمساجى» : عام ۱۹۷۲ .
- الشباب : عام ۱۹۷۲ .
- الفداء المسيحية : عام ۱۹۷۷ .
- مصر : سنوات ١٩٤٥، ١٩٤٩، ١٩٥٢ .
- المصور : سنوات ١٩٣٦ ، ١٩٥٢، ١٩٥٤، ١٩٦٩ .
- المنارة المرقسية : سنوات ١٩٣٠ ، ١٩٣١ .
- المنارة المصرية : سنوات ١٩٣٠، ١٩٣٦، ١٩٣٧، ١٩٣٨، ١٩٤٥، ١٩٤٩، ١٩٥٢ .
- الوفد المصرى : عام ١٩٣٨ .
- وطنى : عام ١٩٦٤ .

خامسًا : المراجع :

أ- العربية :

- القس إبراهيم عبد السيد : كتيب عن سرجيوس القسيس الثائر، القاهرة ، ١٩٩٤ .
- ابن كبر : مصباح الظلمة فى إيضاح الخدمة ، جـ١ ، مكتبة الكاروز، القاهرة .
- أديب نجيب سلامة : تاريخ الكنيسة الإنجيلية فى مصر ، القاهرة ، ١٩٨٢ .
- إيريس حبيب المصرى : قصة الكنيسة القبطية ، الكتاب الخامس ، القاهرة .
- الأسقف إيسيذورس : الخريدة النفيسة فى تاريخ الكنيسة ، جـ٢، د . ت .
- بطرس سعد الله (الأب): تاريخ الإكليروس للأقباط الكاثوليك، المعادى، ١٩٦٢ .
- حبيب جرجس : الإكليركية بين الماضى والحاضر ، القاهرة، ١٩٣٨ .

- خليل نسيم خليل : القمص سرجيوس ، القاهرة، ١٩٦٥ .
- رفيق حبيب ومحمد عفيفى : تاريخ الكنيسة القبطية ، القاهرة، ١٩٩٤ .
- القمص سرجيوس : - رد القمص سرجيوس على الشيخ العدوى حول التثليث والتوحيد، القاهرة ،١٩٤٦ .
- رد القمص سرجيوس على الشيخ الطنيخى وآخرين، القاهرة ، ١٩٤٦ .
- رد القمص سرجيوس على الشيخين الطنيخى والعدوى حول تجسد الله ولاهوت المسيح ، القاهرة ، ١٩٤٧ .
- رد القمص سرجيوس على المنتصر المهدى حول حقيقة صلب المسيح وموته، القاهرة، ١٩٤٧ .
- هل تنبأت التوراة أو الإنجيل عن محمد، القاهرة، ١٩٤٧ .
- سليمان نسيم : الأقباط والتعليم فى مصر الحديثة ، منشورات أسقفية الدراسات العليا والبحث العلمى ، القاهرة ، د. ت .
- سميرة بحر : الأقباط فى الحياة السياسية المصرية ، ط٢ ، القاهرة، ١٩٨٤ .
- الشماس شاكر المعصرانى : صوت الحق فى قضية القمص سرجيوس، إصدار لجنة كنيسة القللى ، د. ت .
- ضياء الدين الريس : الدستور والاستقلال والثورة الوطنية ١٩٣٥ ، جزآن، ط١ ، القاهرة ١٩٧٥ .
- طارق البشرى: المسلمون والأقباط فى إطار الجماعة الوطنية، القاهرة، ١٩٨٠ .
- عبد الرحمن الرافعى : ثورة ١٩١٩ ، جزآن ، ط٢، القاهرة ، ١٩٥٥ .
- عبد العظيم رمضان : تطور الحركة الوطنية فى مصر ١٩١٨-١٩٣٦ ، القاهرة، ١٩٨٢ .
- غالى شكرى : الأقباط فى وطن متغير ، القاهرة، ١٩٩٠ .
- الأب متى المسكين : مقالات بين السياسة والدين، دير الأنبا مقار، ١٩٨٠ .

- محمد عاطف غيث ، محرر : قاموس علم الاجتماع ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة، ١٩٧٩ .
- محمد عفيفي : الأقباط في العصر العثماني ، القاهرة ، ١٩٩٢ .
- مصطفى الفقي : الأقباط في السياسة المصرية، مكرم عبيد ودوره في الحركة الوطنية ، ط٢، القاهرة ، ١٩٨٨ .
- يونان لبيب رزق : الحياة الحزبية في مصر في عهد الاحتلال البريطاني ، القاهرة، ١٩٧٠ .
- أصحاب القمصان الملونة في مصر ١٩٣٣ـ١٩٣٧ .
المجلة التاريخية المصرية ، مجلد ٢١ ، ١٩٧٤ .
- تاريخ الوزارات المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٥ .

ب ـ الأجنبية :

١ـــ دوائر المعارف :

- The Coptic Encyclopedia, Vol.7., New york, U.S.A., 1991.

٢ـــ المـراجع :

- Carter, B.L.: The Coptes in Egyptian politics , Croom Heln , London , 1986.
- The Cry of Egypt's Copts , Documents on Christian Life in Egypt today , New york, 1951.
- Clemment ,. R. : Les Français d'Egypt aux xvII et xvIII Sicle , IFAO, Le Caire , 1960
- Gonzales , Le pere,: Voyage en Egypt 1646-1647, Vol. 1, IFAO, Le Caire , 1973.
- Sicard , Le pere: Ouvrages , Tome II , IFAO , Le Caire , 1982.

الفهـــرس

رقم الإيداع ٢٠٠٠/٧٣٨٤
الترقيم الدولى 8 - 0629 - 09 - 977

مطابع الشروق
القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى - ت:٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس:٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

الدين والسياسة
فى مصر المعاصرة

عندما بدأت التخصص فى تاريخ الأقباط الحديث والمعاصر، بدأت أيضا فى التعرف على شخصية القمص سرجيوس عن قرب. ووجدت ذكراه حية فى قلوب الكثيرين.

ثرية هى حقّا سيرة حياة القمص سرجيوس، عندما تقلب صفحاتها ستجد مواقف ومعارك مع البابوات الأقباط من كيرلس الخامس حتى كيرلس السادس، ومع الزعامات والشخصيات التاريخية من سعد زغلول إلى النحاس، حسن البنا، النقراشى، مكرم عبيد، الملك فاروق، محمد نجيب، عبد الناصر. إنها سيرة تحطم الحائط الوهمى بين الدين والسياسة فى تاريخ مصر المعاصر.

وأقصد من هذا الكتاب أن يثير فى ذهن القارئ مجموعة الأسئلة التى حاولت أن أطرحها من خلال دراسة شخصية القمص سرجيوس «رمز الوحدة الوطنية». وما أحوجنا الآن لهذه الوحدة وهذه الشخصية وهذه الدراسة.

الغلاف للفنان حلمى التونى

دار الشروق
القاهرة: ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص.ب: ٣٣ البانوراما - تليفون: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨٠٧٢١٣ - فاكس: ٨١٧٧٦٥ (٩٦١)